ليسيا أوكراينكا

مختارات من أشعارها ورسائلها

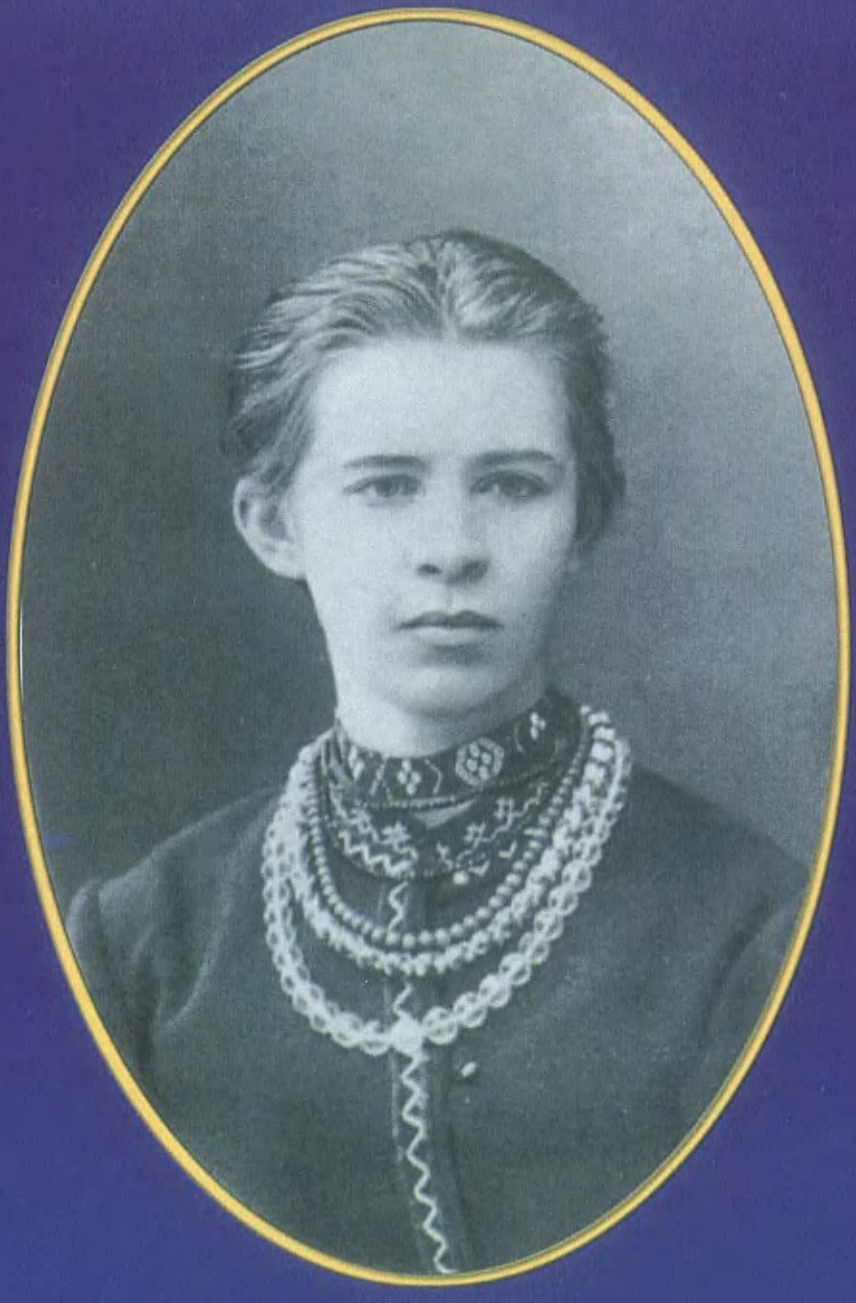

ترجمة وتقديم

أولينا خوميتسكا سمير مُندي

دار العين للنشر

ليسيا أوكراينكا

مختارات من أشعارها ورسائلها

ليسيا أوكراينكا

مختارات من أشعارها ورسائلها

ترجمة وتقديم: أولينا خوميتسكا/ سمير مُندي

الطبعة الأولى / ١٤٣٨هـ، ٢٠١٧م

حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر
٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥ ، فاكس:٢٣٩٦٢٤٧٦
E-mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار
أ.د. أحمد شوقي
أ. خالد فهمي
أ.د. فتح الله الشيخ
أ.د. فيصل يونس
أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي
المدير العام
د. فاطمة البودي

الغلاف: عمرو عبد العزيز

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٥١٦٩ /٢٠١٧
I.S.B.N: 978 - 977 - 490 - 467 - 7

ليسيا أوكراينكا

مختارات من أشعارها ورسائلها

ترجمة وتقديم

أولينا خوميتسكا سمير مُندي

دار العين للنشر

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

ليسيا أوكراينكا: مختارات من أشعارها ورسائلها/ ترجمة وتقديم أولينا خوميتسكا، سمير مُندي.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٧

ص؛ سم.

تدمك: ٧ ٤٦٧ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- الشعر الأوكراني

أ- خوميتسكا، أولينا (مترجم)

ب- مُندي، سمير (مترجم مشارك)

أ- العنوان

٨٩١,٧٩١

رقم الإيداع / ١٥١٦٩ / ٢٠١٧

هـذه ترجمـة لمختارات مـن الأعمـال الكاملة للشـاعرة الأوكرانية ليسـيا أوكراينـكا، صـدرت في كييف فيما بين الأعـوام 1975–1979م في 12 مجلدا بعنوان:

Lesya Ukrainka (1975-1979). *Zibrannia tvoriv u 12 tomakh*. [Collected Works in 12 Volumes]. Kyiv: Naukova dumka. (in Ukrainian).

نتقدم بجزيل الشـــكر والعرفان لشركة الديري انترناشونال للخدمات الجامعيـــة والتدريـــب (د. محمـــود الديري) عـــلى الدعم الـــذي قدمته لإصدار هذا الكتاب.

المحتويات

مقدمة الترجمة 13
1 - الأدب الأوكراني واللغة الأوكرانية 14
2 - النهضة المقتولة رميًا بالرصاص 18
3 - ليسيا أوكراينكا في الأدب الأوكراني 22
4 - الأدب الأوكراني والأدب العربي 25
5 - صورة مصر في شعر ليسيا أوكراينكا 32

القسم الأول

مختارات من شعر ليسيا أوكراينكا 45
أولاً: ديوان الربيع في مصر 47
1 - الخماسين 49
2 - تنفس الصحراء 53
3 - عفراء 55
4 - ليلة عاصفة 59
5 - ضيف من الشمال 63
6 - هبة سرية 65

7 - حلم 69
ثانيًا: مجموعة قصائد (ألحان) من ديوان (الأفكار والأحلام): 71
1 - كانت ليلة هادئة وحالكة 73
2 - لا تغنوا لي هذه الأغنية 75
3 - يحترق قلبي 76
4 - مرة أخرى الربيع ومرة أخرى الآمال 78
5 - أنظر إلى النجوم الساطعة 80
6 - وقفت وأنا استمع إلى الربيع 81
7 - كنت أتمنى لو أصبحت أغنية 82
8 - انتصار 84
9 - إلى إلهة الإلهام 87
10 - تلك كانت ليلة هادئة ساحرة 89
11 - الربيع الذي كان 91
12 - تجمع حزني في سحابة سوداء 94
ثالثًا: متفرقات 97
1 - Contra Spem Spero! 99
2 - إلى البيانو الخاص بي 102
3 - أيا حلمي لا تخنّي 105
4 - أن أترك كل شيء وآتي إليك 108
5 - دائمًا تفوح من رسائلك رائحة الورود الذابلة 109

القسم الثاني

مختارات من رسائل ليسيا أوكراينكا 113

1 - رسالة إلى أولها كوساتش الأخت 115

2 - رسالة إلى أولها كوساتش الوالدة 117

3 - رسالة إلى بوريس هرينتشينكو 122

4 - رسالة إلى ميخايلو كريفينيوك 128

5 - رسالة إلى أولها كوساتش الوالدة 131

القسم الثالث

ليسيا أوكراينكا: سيرة حياة 135

1 - سيرة ليسيا أوكراينكا 137

2 - قائمة بأعمال مختارة من مؤلفات ليسيا أوكراينكا ... 147

3 - حياتها بالصور 157

4 - من ألبوم رحلتها إلى مصر 173

مقدمة الترجمة

ربما تكون هذه هي المرة الأولى التي تُترجم فيها "ليسيا أوكراينكا" (*) Lesya Ukrainka (1871-1913م) إلى اللغة العربية. على الرغم من أنها تُرجمت إلى العديد من اللغات الأوربية، وعلى الرغم من العلاقة التاريخية التي جمعت الأدبين العربي والأوكراني. سواء من خلال النصوص الأدبية الأوكرانية التي تضمنت تمثيلات للعالم العربي، أو من خلال النصوص الأدبية العربية التي تضمنت تمثيلات لأوكرانيا في فترات تاريخية متباينة، كما سنوضح بعد قليل. ناهيك عن أن أوكراينكا كانت قد ترددت على مصر خلال السنوات الثلاث الأخيرة من حياتها القصيرة. فمنذ نهاية عام 1909م كانت أوكراينكا تزور مدينة حلوان مرة كل عام بغرض الاستشفاء والاستجمام. وتكررت زياراتها السنوية إلى مصر حتى ربيع عام 1913م حيث توفيت صيف هذا العام ودُفنت في كييف العاصمة الأوكرانية. أما من هي ليسيا أوكراينكا، وما هي حكايتها وحكاية علاقتها بمصر بالتفصيل، فذلك ما سنوضحه في حينه، ولكن يجدر بنا أن نتوقف

(*) الثابت حتى الآن أنها لم تُترجم إلى العربية، وربما يكشف المستقبل عن شيء آخر.

قليلاً أمام بدايات وتطور الأدب الأوكراني الحديث قبل أن نستفيض في الكلام عن ليسيا أوكراينكا. إذ من شأن هذه الوقفة أن تضعنا أمام صورة، ولو موجزة، عن الأدب الأوكراني ككل، خصوصًا وأن هذه الفرصة لا تُتاح للقارئ العربي إلا في القليل النادر، وأن تطلعنا، بالإضافة إلى هذا، على مكانة الأدب الأوكراني من الأدب العالمي، ومكانة ليسيا أوكراينكا من الأدب الأوكراني.

1- الأدب الأوكراني واللغة الأوكرانية:

تعود نشأة الأدب الأوكراني الحديث إلى نهاية القرن الثامن عشر مع ظهور القصيدة الهزلية الطويلة "إينييدا" للكاتب الأوكراني إيفان كوتلاريفسكي *Ivan Kotliarevskyj* (1769-1838م)، الشاعر والكاتب المسرحي الذي يُعتبر مؤسسًا للأدب الأوكراني الحديث، إذ دخلت "إينييدا" الأدب الأوكراني باعتبارها أول عمل أدبي مكتوب بلغة مُستمدة من اللهجة الأوكرانية الدارجة، فوضعت، بذلك، أساسًا للغة أوكرانية أدبية جديدة ولأدب أوكراني حديث.

اتبع كُتاب آخرون نهج كوتلاريفسكي مُستلهمين تلك النبرة الهزلية الساخرة التي تميزت بها مؤلفاته، ومن هؤلاء الكُتاب المهمين هريهوري كفيتكا-أوسنوفيانينكو *Hryhorij Kvitka-Osnovianenko* (1778-1843م) الذي اجتهد في

تطويـــع اللغة الأوكرانية لتعبر عن مختلف ألـــوان الكتابة الأدبية، محاولاً، مـــن خلال كتاباته، أن يبرهن علـــى أن اللغة الأوكرانية تستطيع أن تعبر عن الجاد والكوميدي، الساخر والتراجيدي. وبذلك كانت خطوة كفيتكا-أوسنوفيانينكو، لاسيما بعد كوتلاريفسكي، هي العمل على تجاوز الأوكرانية للكوميديا إلى ما سواها. علاوة على أن كفيتكا-أوســـنوفيانينكو كان أول من خلق شخصيات ساردیه من الفلكلـــور الأوكراني، بحيث جاءت مُعبرة عن الأخلاق الشـــعبية الأوكرانية السائدة آنذاك.

غيـــر أن المجموعـــة الشـــعرية "كوبـــزار" المنشـــورة عام 1840م للشـــاعر الأوكرانـــي الكبيـــر تـــاراس شيفتشـــينكو(*) *Taras Shevchenko* (1814-1861م) عُدّت بمثابة إعلان الاستقلال الفكري والأدبي للأوكران. حيث حددت أعمال تاراس شيفتشـــينكو مســـار تطـــور الأدب الأوكراني لعقودٍ تالية، بما في ذلك الشـــعر والنثـــر والدراما. كما يُعتبر شـــعره نقلة مهمة في مســـار تطور اللغـــة الأوكرانية، إذ أكمل شيفتشـــينكو ما كان قد بدأه ســـابقوه، كوتلاريفسكي، كفيتكا-أوسنوفيانينكو وشـــعراء التيار الرومانسي وغيرهـــم. فقام بمزج الأوكرانية باللهجة الشـــعبية الدارجة مُثريًا،

(*) يعد تاراس شيفتشـــينكو على المســـتوى العالمي رمـــزًا، ليس للأدب الأوكراني فحســـب، بل للثقافة الأوكرانية ككل، إذ بدأ شيفتشينكو مرحلة جديدة في تاريخ الأدب الأوكراني بدفاعه عن اللغة الأوكرانية واعتبارها أساسًـــا روحيًا للشعب الأوكراني. هذا بالإضافة إلى أن إبداع شيفتشـــينكو كان متنوعًا ومتعدد الجوانب، فكان شـــاعرًا وكاتب مسرحيات وقصص طويلة وفنانًا ذا مواهب متعددة.

بذلك، الوسائل التعبيرية للغة الأدب. لقد رسَّخ شيفتشينكو قواعد اللغة الأوكرانية الدارجة في شعره حتى أصبح شعره اللِبنة الأولى في صوغ اللغة الأدبية الأوكرانية المعاصرة.(*)

ولشخصية إيفان فرانكو *Ivan Franko* (1856-1916م) مكانة خاصة في تاريخ الثقافة الأوكرانية. إذ كانت دراساته وأبحاثه حول اللغة الأوكرانية نقلة جديدة، بعد شيفتشينكو، على طريق تطور هذه اللغة. وانشغل فرانكو بمسألة اللغة الأدبية على وجه التحديد في هذا السياق. فكتب دراساته: "أصل الكلمات والصوتيات في الأدب الأوكراني" 1894م، "أسماء الأعلام الأوكرانية" 1906م، "اللغة الأدبية واللهجات" 1907م. لقد استطاع فرانكو أن يتحدث عن لغة أدبية أوكرانية موحدة ومطورة من بين اللهجات الأوكرانية

(*) لاعتبارات كثيرة من ضمنها ضيق المقام الذي نتحدث في سياقه عن الأدب الأوكراني اضطررنا إلى اختزال الكثير من التطورات في تاريخ الأدب الأوكراني. وللقارئ أن يستزيد، إن أراد، من المراجع التي سنشير إليها في سياقها. إنما يمكن القول، باختصار، إن الحياة الأدبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد تشكلت، تحت تأثير إبداع كوكبة من الكُتاب الموهوبين منهم: ماركو فوفتشوك *Marko Vovchok* (1833-1907م) إيفان نيتشوي-ليفيتسكي *Ivan Nechuj-Levytskyj* (1838-1918م)، باناس ميرني *Panas Myrnyj* (1849-1920م)، أولها كوبيلانسكا *Olha Kobylianska* (1863-1942م) بوريس هرينتشينكو *Borys Hrinchenko* (1863-1910م)، ميخايلو كوتسيوبينسكي *Mykhailo Kotsiubynskyj* (1864-1913م)، وغيرهم من الكُتاب. حيث تميّز أدب هذه الحقبة بتنوع الاتجاهات الأدبية وأساليب الكتابة والألوان الأدبية المختلفة، من الروايات الملحمية والقصص الطويلة إلى القصص القصيرة والمقالات الهزلية الساخرة إلخ. وكان معظم الكُتاب في هذه الفترة يمارسون الأنشطة السياسية والتنويرية.

المتعـــددة بما فيها الأوكرانية الغربية. وواضح أن جهود فرانكو لم تكن إلا ترجمةً نظرية لجهود سابقيه في توظيف اللهجات الدارجة في كتاباتهم، ولجهده هو شخصيًا في محاولة التأكيد على لغة الأدب باعتبارها لغة مرشـــحة لأن تكون نقطة التقاء للهجات الأوكرانية. بخلاف ذلـــك كتب فرانكو، عـــددًا من القصائد، مُســـتلهمًا الثقافة الأوكرانية، عن حياة ســـكان منطقة هاليتشينا في ذلك الوقت. على سبيل المثال: "بشـــكل إنساني" 1884م، "من الحب" 1890م. ولكن موهبته الشـــعرية تجلت بشـــكل أكثر قوة في القصائد الطويلة التي نرى فيها مشـــاهد واقعية وصورًا من تراث الشـــعب الأوكراني، منها: "موت قابيل" 1889م، "إيفان فيشينكسي" 1895م، "على جبل القديس يوري" 1900م.

لم يتوقف فرانكو(*) عند هذا الحد. فقد انتبه، بنفس درجة انتباهه إلـــى ثقافته الأم، إلى ضرورة مزج هـــذا الرافد المحلي المتوارث بالروافد الغربية والشـــرقية التي من شـــأنها أن تنقله خطوة أخرى على طريـــق النضج والغنى. لاســـيما وأن فرانكـــو كان معدودًا واحدًا مـــن رواد ترجمة الأدب العالمي إلـــى الأوكرانية. فقد نقل

(*) لعل وعي فرانكو بالدور التنويري الذي كان يمارسه في هذه الفترة من تاريخ بلاده هو ما يفسر هذا الكم الهائل والمتنوع من الكتابات التي خلّفها وراءه على كافة أصعدة الثقافة الأوكرانية. فهو شاعر وكاتب مسرحيات وناقد ومؤرخ أدبي ومترجم وناشر وباحث وناشط سياسي واجتماعي... بحيث أصبح فرانكو شخصية تمثل عصرًا كاملاً في الأدب الأوكراني.

إلى الأوكرانية، على سبيل المثال، أعمال جوته، هاينه وبايرون. ومن الشرق، وبالتحديد من الثقافة العربية، استهلم فرانكو قصة "مركوب أبي القاسم" التي وردت ضمن حكايات "ألف ليلة وليلة"، في كتابة قصة شعرية للأطفال حملت نفس الاسم وصدرت عام 1895م محققة نجاحًا كبيرًا. كما كتب عام 1905م رائعته الشعرية "موسى" مُستلهمًا القصة التوراتية وموظفًا رمزيتها في الإشارة إلى نهضة الشعب الأوكراني.

يصل هذا الجهد إلى ختام على يد بوريس هرينتشينكو(*) (1863-1910م) بوضعه لقاموس اللغة الأوكرانية الذي صدر بين عامي 1907 و1909م في كييف في 4 مجلدات، وكان له تأثير كبير على ترسيخ اللغة الأوكرانية وقواعدها الإملائية. كما كان وضع هرينتشينكو لأول كتب مدرسية في اللغة الأوكرانية والأدب الأوكراني إيذانًا بترسيخ دعائم اللغة الأوكرانية في ذاكرة الأجيال الجديدة.

2 - النهضة المقتولة رميًا بالرصاص:

بعد ثورة 1917م تميزت العملية الأدبية في أوكرانيا بتعقيد ودراماتيكية خاصة، كما كان الحال في الاتحاد السوفيتي كله. فمن

(*) سيجد القارئ في القسم الثالث من هذا الكتاب رسالة موجهة من ليسيا أوكراينكا إلى بوريس هرينتشينكو.

جهة، كان الأدب الأوكراني يشهد ازدهارًا غير مسبوق، حيث كانت تتعايش على الساحة الأدبية مدارس أدبية مختلفة، وأساليب واتجاهات متنوعة. ومن جهة أخرى جرى في الفترة ما بين 1925 و1928م ما سُمّي بـ"النقاش الأدبي"، وهو عبارة عن جدل عام ثار حول طرق تطور الأدب السوفيتي-الأوكراني الجديد، وتوجهه الفكري والجمالي ومهامه، ومكانة ودور الكاتب في المجتمع. نشأ هذا الجدال بسبب الخلافات العميقة في فهم طبيعة وهدف الكتابة الأدبية بين الكتاب الأوكرانيين، والمنافسة الإيديولوجية والسياسية بين المؤسسات الأدبية.

وبحلول الثلاثينات من القرن العشرين تعرض ممثلو موجة النهضة الأوكرانية للاعتقال وللقتل رميًا بالرصاص بسبب عمليات القمع البلشفية. حيث عانى حوالي 240 كاتبًا أوكرانيًا من وطأة الاضطهاد على الرغم من أن العديد منهم كانوا من أنصار النظام السوفيتي، وأعدم بعضهم رميًا بالرصاص، بينما لقي الآخرون حتفهم في السجون، وظل مصير بعضهم بعد الاعتقال مجهولاً. على سبيل المثال اُعتقل الشاعر ماكسيم ريلسكي *Maksym Rylskyj* (1895-1964م) المُعترف به من قبل السلطة السوفيتية، وأوستاب فيشنيا *Ostap Vyshnia* (1889-1956م) أحد أهم كُتاب الأدب الهجائي في القرن العشرين، الذي قضى عشر سنوات في المعسكرات بتهمة

المشـــاركة في تنظيم عســـكري أوكراني. وقُتل رميًا بالرصاص كل مـــن: هريهـــوري كوســـينكا *Hryhorij Kosynka* (1899-1934م)، ميكـــولا زيـــروف *Mykola Zerov* (1890-1937م)، ميكولا كوليش *Mykola Kulish* (1892-1937م)، يفهين بلوجنيك *Yevhen Pluzhnyk* (1898-1936م)، ميخايلو سيمينكو *Mykhailo Semenko* (1892-1937م) مؤســـس ومنظر اتجاه المســـتقبلية في الأدب الأوكراني. وانتحر ميكولا خفيليوفي *Mykola Khvyliovyj* (1893-1933م) الـــذي حـــاول إنقاذ العديد مـــن رفاقه. كما حُظر مســـرح "بيريزيل" (*Berezil*) التجريبي، أما رئيسه ليس كورباس *Les Kurbas*، المخرج المســـرحي المعروف عالميًا، فتم اعتقاله وقتلـــه بالرصاص. ومن ثم دخـــل هذا الجيل مـــن الكُتاب تاريخ الأدب الأوكراني تحت اســـم "النهضة المقتولة رميًا بالرصاص" (*Rozstriliane vidrodzhennia*).

وعلى الرغم من الأطر الصارمة التي فرضها أسلوب الواقعية الاشـــتراكية الســـائد أثناء الحقبة السوفيتية، فقد اســـتطاع الكتاب الأوكرانيون أن يخلقوا أدبًا لم يفقد أهميته حتى يومنا هذا. خصوصًا الأعمال الأدبية للشـــعراء بافلو تيتشـــينا *Pavlo Tychyna* (1891-1967م)، ماكســـيم ريلســـكي *Maksym Rylskyj* (1895-1964م)، فولوديمير سوسيورا *Volodymyr Sosiura* (1898-1965م). أيضًا أعمال الكاتب والمخرج السينمائي ألكساندر دوفجينكو *Oleksandr*

Dovzhenko (1894-1956م) الذي بفضله حققت السينما الأوكرانية شـــهرة عالمية. بالإضافة إلى الكاتب والناقد أوليس هونتشار *Oles Honchar* (1918-1995م).

وفي الســـتينات من القرن العشـــرين، نتيجة لسياســـات نيكيتا خروشوف التي تميزت بنوع من الانفتاح وتخفيف الرقابة والانفراج الدولي، نشـــأت حركة فنية قوية من "جيل الســـتينات" الذين كانوا يبحثون عن أشـــكال جديدة للإبداع وكانوا يدعون إلى حماية اللغة والثقافة القومية وحرية الإبداع الفني. منهم على سبيل المثال فاسيل سيمونينكو *Vasyl Symonenko* (1935-1963م)، هريهر تيوتيونيك *Hryhir Tiutiunnyk* (1931-1980م)، فاســـيل ستوس *Vasyl Stus* (1938-1985م)، ديمتـــرو بافليتشـــكو *Dmytro Pavlychko* (ولد 1929م)، لينا كوســـتينكو *Lina Kostenko* (ولدت 1930م)، إيفان دراتش *Ivan Drach* (ولد 1936م)، وغيرهم.

لكـــن مجموعة أخرى مـــن الكُتاب الأوكران كانـــوا قد قرروا الهجرة إلى أمريكا وأوربـــا هربًا من موجات القمع التي تعرضوا لها أو التي كان يمكن أن يتعرضوا لها مســـتقبلاً. وذلك خلال عقد الأربعينات وبداية الخمسينات من القرن العشرين، حيث أسسوا ما سُمى بعد ذلك بأدب المهجر الأوكراني. ومن هؤلاء إيفان باهرياني *Ivan Bahrianyj* (1906-1963م) الذي هاجر إلى ألمانيا، وأولاس سامتشـــوك *Ulas Samchuk* (1905-1987م) الذي هاجر إلى كندا،

وفاسيل باركا *Vasyl Barka* (1908-2003م) وبوهدان بويتشوك *Boichuk Bohdan* (1927-2017م) اللذان هاجرا إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

أما الأدب الأوكراني المعاصر فيشمل أعمال العقود الأخيرة، أي منذ حصول أوكرانيا على استقلالها عام 1991م. فبعد انهيار الاتحاد السوفيتي بدأ الأدب الأوكراني المعاصر يتطرق إلى الموضوعات التي كانت محظورة كموضوع المجاعة 1932-1933م مثلاً. يستفيد هذا الأدب من تيارات ما بعد الحداثة، ويهتم بالقضايا الاجتماعية والذاكرة التاريخية.(*)

3 - ليسيا أوكراينكا في الأدب الأوكراني:

لعبت ليسيا أوكراينكا دورًا بارزًا في الأدب الأوكراني سواء من خلال كتاباتها، أو ترجماتها أو نشاطها في الترويج للأدب الأوكراني الذي كان يواجه تحديات على مستويي لغة التعبير، وسبل النشر. وسوف يتمكن القارئ، كلما تقدم في قراءة هذا الكتاب، أن يُلم بهذا الدور. إنما يمكن أن نشير، في هذا السياق، إلى علاقة

(*) لمزيد من التفاصيل حول الأدب الأوكراني ورواده قديمًا وحديثًا انظر:
Anthologie de la littérature ukrainienne du XIe au XXe siècle / red. M. Cadot [e.a.]; Société scientifique Sevcenko en Europe. - Paris; Kyiv: 2004. - XIV, 1202 p.

التقدير والاحترام المُتبادل التي جمعتها بواحد من أهم معاصريها. نعني بهِ إيفان فرانكو. مثل هذه الإشـــارة الموجزة ســـتضع أيدينا على تشـــخيص لوضع ليسيا أوكراينكا في الأدب الأوكراني بشكل أقـــرب إلى الواقع. فقد كان فرانكو مـــن أوائل من لاحظوا موهبة ليســـيا أوكراينكا وأشـــادوا بها. حتى أنه تولى بنفسه نشر قصائدها الأولى(*) عام 1884م في مجلة "زوريا"(**).

عندما بدأ فرانكو في إعداد "أنطولوجيا الشعراء الأوربيين" أواخر سبتمبر من عام 1891م، طلب من ليسيا أوكراينكا أن تُترجم له مختارات شـــعرية من ديوان "أســـطورة العصور" La Légende des Siècles لهوجـــو. إذ كان فرانكو، وهو المترجـــم الكبير، ينظر بعين الاعتبار لترجمة أوكراينكا. يؤكد ذلك الرسالة التي أرسلها بتاريخ 1 يناير 1895م إلى دراهومانوف(***) يعلن فيها عن رغبته في أن تقوم ليسيا أوكراينكا

(*) اعتمدنـــا على دراســـة صدرت بالأوكرانيـــة حول علاقة إيفان فرانكو بليســـيا أوكراينـــكا. انظـــر: ميكـــولا هورباتيوك. إيفـــان فرانكـــو وليســـيا أوكراينكا في الأدب والشـــئون العامـــة وفي الحيـــاة اليومية، مجلة أوكراينســـكا بيوجرافيســـتيكا *Biographistica Ukrainica*، العدد 6، أوكراينا، 2010م. ص/ 193- 216

Horbatjuk, Mykola. Ivan Franko ta Lesja Ukrajinka u literaturi, ghromadskykh spravakh i u budennomu zhytti [Ivan Franko and Lesya Ukrainka in Literature, Public Affairs and in Everyday Life]. *Ukrajinska bioghrafistyka* [Biographistica Ukrainica]. - 2010. - Vol. 6. - pp. 193-216.

(**) تعني الفجر بالعربية.

(***) هو ميخايلو دراهومانوف (1841-1895م) خال ليسيا أوكراينكا، كاتب ومؤرخ ومفكر وعالم فولكلور وناشط اجتماعي أوكراني.

بترجمة مسرحية "توركيمادا"(*) Torquemada لفيكتور هوجو، قائلاً: "أردت حقًا أن ننشر هذه الدراما بلغتنا، وأعتقد أني لن أجد مترجمًا أفضل".

لكن فرانكو، قبل ذلك بعامين، وبالتحديد عام 1893م كان قد شارك في إعداد ديوان ليسيا أوكراينكا "على أجنحة الأغاني" للنشر، سواء بالمراجعة اللغوية أو التحرير. بل إن فرانكو ترجم إعجابه بشعر ليسيا أوكراينكا ترجمة عملية عندما قام بنشر مقال حول ديوانها في مجلة "زوريا" 1893م، عبر خلاله عن تقديره لشعرها بوصفه إنجازًا كبيرًا للأدب الأوكراني. ولم تكن هذه هي المرة الأخيرة التي يكتب فيها فرانكو عن ليسيا أوكراينكا. ففي عام 1898م نشر فرانكو مقالاً في "المجلة العلمية الأدبية" *Literaturno-naukovyj visnyk* تعبيرًا عن دعمه وتشجيعه للشاعرة. حدد فرانكو، خلال المقال، مراحل في إبداع ليسيا أوكراينكا وتناولها بالتحليل والتفسير.(**)

ومثلما كان فرانكو مهتمًا بآداب الشعوب الشرقية، كانت ليسيا أوكراينكا أيضًا تنطوي على نفس الاهتمام. فقد ألفت

(*) توركيمادا: راهب إسباني عاش في القرن الخامس عشر للميلاد، وهو أول محقق عام في محاكم التفتيش آنذاك.

(**) كان أول لقاء موثق بين ليسيا أوكراينكا وإيفان فرانكو في فبراير سنة 1891م، عندما كانت الشاعرة الشابة مع والدتها في زيارة عبرتا خلالها من لفيف، حيث نزلتا فيها للاستراحة وترتيب بعض الأمور في طريقهما إلى فيينا بقصد علاج عظم قدم ليسيا المصاب بالسل.

أوكراينكا كتابًا أسمته "تاريخ الشعوب الشرقية القديم" *The Ancient History of Oriental Peoples* تتناول فيه حضارات الشعوب الشرقية مثل الهند، بلاد فارس، الحضارة البابلية والحضارة الفرعونية.. إلخ. بل إن أوكراينكا كانت قد شرعت قبيل وفاتها بقليل في تأليف قصة طويلة بعنوان "إقبال هانم" تدور أحداثها في مصر. إن ليسيا أوكراينكا كانت، بحكم تربيتها العقلية الممتازة وإتقانها للعديد من اللغات، على دراية واسعة بتاريخ الشرق وآدابه. هذا بخلاف أن مرضها، كما سنوضح بعد قليل، قد اضطرها إلى السفر إلى مصر في كثير من المرات طلبًا للاستشفاء والتعافي. مثل هذه الزيارات كانت فرصة لأن تتمثل بالتجربة ما سبق أن تمثلته بالخيال. إن للشرق عمومًا ولمصر خصوصًا، بهذا المعنى، صورًا وتمثيلات في أدب النهضة الأوكراني جديرة بالدرس والبحث.

4 - الأدب الأوكراني والأدب العربي:

لم تكن تجربة ليسيا أوكراينكا هي التجربة الأولى والأخيرة التي جمعت الأدب العربي بأوكرانيا. فقد نشر معهد أ. كريمسكي للدراسات الشرقية بكييف مؤخرًا كتابًا يتضمن تحقيقًا لمخطوط "رحلة البطريرك الأنطاكي مكاريوس". والمخطوط، الذي كُتب بعربية القرن السابع عشر، يعد وثيقة مهمة في تاريخ الأدب العربي الحديث. فبالإضافة إلى الرحلة التي بدأها مكاريوس الأنطاكي من

حلب إلى موسكو عبر آسيا الصغرى والقسطنطينية ومولدافيا وفلاخيا وأوكرانيا، بهدف جمع التبرعات لسد ديون الكنيسة الأنطاكية، فإن الكتاب تضمن مشاهدات وأحوال وأخلاق وعادات بلدان من وجهة نظر عربية مسيحية. والكتاب الذي كُتب بلغة تستفيد كثيرًا من العامية يعكس صورة عن اللغة العربية المنطوقة والمكتوبة في القرن السابع عشر(*). كما يعد سيرة ذاتية نادرة يجب أن تحظى بما تستحق من درس واهتمام.

وفي سياق آخر نقل لنا ميخائيل نُعيمة (1889-1988م) في سيرته الذاتية "سبعون" صورة من تجربة رحلته العلمية إلى "بولتافا" عام 1906م، إحدى المدن الأوكرانية القديمة، بغرض الدراسة. فقد اتفق أن رشحت المدرسة الروسية في الناصرة نُعيمة لبعثة للدراسة في بولتافا مكافأة له على تفوقه. وانضمت الرحلة إلى ما قبلها وما بعدها من رحلات جرت في تاريخ الأدب العربي الحديث بغرض طلب العلم، وسُجلت في سيرة ذاتية اتسمت بالكثير مما تتسم به هذه السير من احتفال بالعقل، وبالبدايات التي تشير إلى نهايات مُجللة بالفوز والانتصار ولسان حالها يقول "لقد أردت، وحققت ما أردت". عن تلك الرحلة وعن بولتافا يقول نُعيمة: "كان من نصيبي أن دخلت

(*) يوليا بيتروفا، رحلة البطريرك مكاريوس الأنطاكي، منشور ضمن كتاب المؤتمر الدولي الأول لتاريخ الأدب العربي (1ST ICHAL-2015)، جامعة تاراس شيفتشينكو الوطنية، كييف، 2016. ص/138.

السمنار في بولتافا. وهي المدينة التي في جوارها وقعت المعركة الحاسمة بين بطرس الأكبر وكارلوس الثاني عشر الأسوجي، فكان النصر فيها للروس، وهي عاصمة ولاية شاسعة تحمل اسمها وتقع في قلب أغنى منطقة في روسيا. واسم تلك المنطقة في لغة أبنائها "أوكرايينا"... بعض رفاقي يلعب الكمان أو القيثار أو المندولين أو البلالايكا فيتحلق حولهم ذوو الأصوات الرخيمة ويمضون ينشدون أغانيهم الأوكرايينية الخلابة. إني أريد أن أعزف مثلما يعزفون، وأُنشد مثلما ينشدون. وبعض رفاقي يحفظ الكثير من نظم الشعراء الروس والأوكرايينين ويجيد إلقاءه. وأنا أريد أن ألقي خيرًا مما يلقون. بل إني أريد أن أنظم الشعر. وأريد أن أكتب القصة. وأريد أن أؤلف المسرحية وأن أتقن فن التمثيل من بعد أن زرت المسرح في بولتافا لأول مرة وسمعت ورأيت كيف تكون التمثيليات وكيف يكون التمثيل. وماذا أقول في الأوبرا وفي الباليه وفي حرية التخالط المطلقة بين الجنسين، في البيت، وفي الشارع، وفي البرية"(*)

إن أوكرانيا تحضر في تجربة ميخائيل نعيمة بوصفها حاضرة الفنون ومسقط رأس كبار الشعراء والقصاصين والكُتاب. وما الغريب في ذلك إذا كان نُعيمة قد بيّت النية في نفسه لأن يكون واحدًا من هؤلاء الكُتاب الكبار الذين أنجبتهم أوكرانيا أو حتى

(*) ميخائيل نُعيمة، سبعون (حكاية عمر)، ج1، دار نوفل للنشر، بيروت، 1991. ص/ 265.

ممن لم تنجبهم أوكرانيا. فقد أخذ نُعيمة يعالج حياته الدراسية بين طلاب مدرسة "السمنار" بعين الشاعر والكاتب الذي ينتظر من نفسه وينتظر منه الآخرون أن يكون بين صفوف كبار الكتاب. لذا ظهرت أمام عينيه أوكرانيا المكتبة والمسرح والأوبرا كما ظهر أمامه من صنوف الرجال الذين يمتلكون القدرة على الكشف عن المواهب وتنميتها والأخذ بيدها. يقول نُعيمة: "والكل يعتز بأن يكون في السمنار طالب مثلي، وينصح لي بالمضي قدمًا في السبيل الذي اخترته.. وبلغ الخبر رفاقي فراح الواحد يقول "إلى الأمام! إلى قمة الأولمب!" والآخر يتنبأ لي بشهرة واسعة، والثالث يحسدني على موهبتي...إي، جميل ولذيذ أن يتفرد الإنسان وأن يسمو فوق الجماهير".

لكن واحدًا آخر أوكراينيًا كان قد بدأ، قبل ذلك بسنواتٍ قلائل، رحلة في الاتجاه العكسي لرحلة نُعيمة. فإذا كان نُعيمة قد وفد من لبنان وبالتحديد من جبل "صنين" إلى بولتافا؛ فإن "أغاتانغل كريمسكي" (1871-1942م) رائد الاستشراق الأوكراني كان قد بدأ رحلة إلى لبنان عام 1896م بهدف دراسة اللهجات اللبنانية ومعايشة المجتمعات العربية عن قرب. وفي اللحظة التي كان فيها نُعيمة يضع قدمه لأول مرة في بولتافا عام 1906م، كان كريمسكي قد بدأ في نشر تجربته في لبنان تحت عنوان "رسائل بيروتية". لكن كريمسكي، قبل ذلك، كان قد بدأ، إبان وجوده في بيروت، في

تسجيل انطباعاته اليومية حول معايشته للثقافة العربية في وجهها اللبناني المسيحي؛ فنقل لنا، من خلال معايشته لأسرة لبنانية، نمط الحياة اليومية لأسرة متوسطة الحال. كما استطاع أن ينقل لنا صورة من حياة الطبقات الراقية اللبنانية أواخر القرن التاسع عشر. بالإضافة إلى ذلك كشف كريمسكي عما كان يجري على الأرض وقتها من صراعات سياسية وثقافية ودينية سواء داخل المجتمع اللبناني نفسه، أو ما كان يجري بين الدول الكبرى من صراعات بهدف السيطرة على المجتمعات العربية آنذاك. علاوة على هذا كله استطاع كريمسكي أن ينفذ، ببصيرة ثاقبة، إلى نسيج المجتمع اللبناني وما يضطرب فيه من مشكلات ظاهرة أو خفية، والتناقضات التي يعانيها. كل هذا وسواه مما قد لا يتسع المقام لذكره، ومما لا يكشف عنه إلا الدرس الهادف إلى التحليل والاستقصاء، أضفى على رسائل كريمسكي أهميةً وأكسبها أصالةً أدبية وتاريخية. نقول أدبية لأن كريمسكي ابتدع لنفسه، في هذا الزمن الذي يبعد عنا بمقدار قرن وعقدين من السنين، طريقةً تجمع بين القص والتدوين التاريخي. إذ صب كريمسكي يومياته في قالب قصصي. وتعمد أن يمضي هذا القص في ألوان من السرد التي تتلاقى وتفترق هنا وهناك، دون أن يتخلى عن حرفية الوقائع وواقعية الأحداث والمسميات؛ فانتهى بنا إلى سرد يجمع بين القص والتاريخ دون أن ينازع أحدهما الآخر، أو يفسد حضوره. يقول كريمسكي في وصفه

للحيـــاة في بيروت آنذاك "بدون اللغة الفرنســـية هنا في بيروت لا يمكنك أن تعيش، وشـــيئًا فشيئًا ســـتموت من الجوع. في فلسطينكم ممكن، هناك إن اندحرت تركيا يمكن أن يأتيكم المســـكوب، أما هنا في سورية فمن سيأتينا غير فرنسا، هي وحدها من يصلح الأمور، حتى أنني لا أســـتطيع أن أعـــرف اليوم أي لغة يتـــم التحدث بها أكثر في بيروت، العربية أم الفرنســـية، فكل شـــيء هنا بيد فرنسا، المدارس والفبارك والمرفأ والسكك الحديدية والتجارة والبنوك، كل شيء.. كل شيء"(*).

واتفق أن سافر الكاتب القصصي محمد المخزنجي إلى أوكرانيا عام 1986م بهدف دراسة الطب النفسي في إحدى جامعاتها. ومع أن تجربة المخزنجي في أوكرانيا كانت قد صادفت حادث تشـــيرنوبل المأساوي؛ إلا أن الحادث تحول إلى مناسبة استطاع المخزنجي من خلالها أن يستشـــعر قوة هذا الشعب وقدرته على التصدي للمحن. لم يتوقف المخزنجي عن ملاحظة الطبيعة الأوكرانية في تحولاتها بين الشـــتاء والربيع، مثلما أخذ يسجل طبائع وسلوكيات الناس في لحظـــات الحزن والفرح، وفي لحظات الـــوداع واللقاء حتى كانت مجموعته القصصية "لحظات غرق جزيرة الحوت" التي صدرت عن الهيئة العامة لقصور الثقافة عام 1996م.

(*) أغاتانغل كريمسكي، قصص بيروتية، ترجمة، عماد الدين رائف، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 2017م، ص/ 99.

لم يترك المخزنجي شاردةً ولا واردةً في أفق تجربته في الحياة في أوكرانيا إلا وتناولها بعين السـارد الذي يقول كل شيء دون أن يتورط في قول كل شيء. ذلك الكاتب الذي، على حد تعبير يوسف إدريس، لا يكتب كل ما هو حقيقي، ولكن كل ما يكتبه حقيقي. يقول المخزنجي في قصته "البطولة": "ثمة شيء يا ناتاليا أحسسته يحيط بمواقع بائعات الزهور، شيء رقيق وشفاف... محسوس لكنه غير مرئي. إنه الحزن يـا ناتاليا... حزن يلف الزهور (هل كانت ذابلة بعض الشـيء على غير عادتها؟) حزن هامد في صدور الفلاحات وهـن ينادين على زهورهن بخفوت. لم يكـنَّ يتضاحكن كعهدهنَّ وهن ينادين المارة ليشـتروا وحزن كان يشوب صمت المشترين. كانوا لا يمكثون طويلاً ولا يتفقـدون الزهور بعناية كدأبهم. كانوا يشترون بسأم لمجرد أداء الواجب في هذه المناسبة..وانتقيت لأجلك ثـلاث زهور من التوليب الأحمر، حصلت عليها يانعة ندية، لكنها للأسف أُصيبت مني في الطريق"(*).

(*) محمد المخزنجي، لحظات غرق جزيرة الحوت، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 1996م. ص/ 46.

5 - صورة مصر في شعر ليسيا أوكراينكا

(1)

لقد كانت مصر هي المحطة الأخيرة في قائمة البلدان التي ترددت عليها أوكراينكا مضطرة تحت وطأة مرض في العظام أفضى إلى وفاتها في نهاية المطاف. ومع أن هذه الزيارات كانت لا تتجاوز أشهرًا معدودات كل عام، إلا أنها تمخضت عن تجربة شعرية فريدة من نوعها اختصت بها مصر. وتعود أهمية هذه التجربة التي سجلتها الشاعرة في ديوان "الربيع في مصر" إلى أنها تعكس صورة نادرة لمصر في الأدب الأوكراني. لاسيما وأن هذه الصورة تعود إلى السنوات الأولى من القرن العشرين. حيث أُتيحت الفرصة لأوكراينكا أن تشاهد عن قرب الحياة اليومية للشعب المصري خلال فترة الاحتلال الإنجليزي. فمكنتنا، بذلك، من أن نطل على هذا العالم الذي اختفى نهائيًا من الوجود بأحداثه وناسه وحركته اليومية. ولأن أوكراينكا كانت قد أتت من بلد يتمتع بطبيعة ومُناخ مختلفين، فقد استطاعت أن تقدم إلينا الطبيعة المصرية من منظور الوافد الذي لم يُفسد الاعتياد خياله. فاحتفلت بما قد نضيق به عادة، وسجلت من التفاصيل العابرة ما قد لا نلتفت إليه أو نعيره

اهتمامًا بحكم أُلفتنا وطول ممارستنا له. وساعد الظرف الصحي الذي حضرت فيه الشاعرة إلى مصر على شحذ قدرتها على التقاط التفاصيل الصغيرة التي يحيا من خلالها الناس، ربما لأنها كانت تفتقد بلدها، وتفتقد شعور الصحيح المُعافى بمتعة الحياة.

أيضًا أشارت ليسيا أوكراينكا، في رسائلها إلى والدتها، إلى طبيعة حياتها في مصر في الفترات التي كانت تزورها خلالها، أوائل الشتاء تقريبًا من كل عام بغرض الاستشفاء. وأشارت كذلك في سرد نادر وممتع إلى السائحين الأوربيين الذين أتوا إلى مصر وأماكن نزولهم وسبل معيشتهم وتعاملهم مع بعضهم البعض. وتذكر، ضمن ما تذكر، أن واحدًا من أبناء وطنها كان يعمل في خدمة خديوي مصر آنذاك. ولابد أن مثل هذه الانطباعات، التي سُجلت بحرية وتلقائية، ترسم صورة للواقع المصري تخلو من الهدف أو الغرض الذي قد يفصل هذه الصورة عن أصلها ويعزلها في دوائر القصد والمصلحة.

وليس معنى ذلك أن شعر أوكراينكا كان مجرد نقلاً آليًا أو فوتوغرافيًا للواقع. أو هو مجرد وثيقة تاريخية تؤرخ لهذا الشأن أو ذاك. فقد امتلك شعر أوكراينكا خصوصية أدبية وجمالية وضعتها بين مصاف كبار الشعراء، سواء في بلدها أو خارج بلدها. ولعل خصوصية تجربتها تلك تعود إلى روح الألم والمعاناة التي تخللت

حياتها القصيرة. فقد عانت، كما أشرنا، وطأة المرض وهي لاتزال في طور الطفولة. وأُبتليت على إثر ذلك بفراق بلدها وأهلها. ثم كان أن فقدت الرجل الوحيد الذي أحبته. وجربت قسوة مراقبة حبيبها وهو يحتضر على فراش المرض حتى توفي بين يديها. وكان من نتيجة معاناة ألم هذه التجربة أن سجلت أوكراينكا فجيعتها في قصيدة أسمتها "الممسوسة" The Possessed عام 1901م.

وقد تولّد من مكابدة الألم الجسدي والروحي ذلك الشعور المنقسم على نفسه بين حب الحياة والضيق بمعاناتها. هذا الاعتراف الصعب بأن الحياة مؤلمة، ولكنها تستحق أن تُعاش. مثل هذه المغالبة تحضرنا في أكثر من قصيدة من قصائد ليسيا أوكراينكا. على سبيل المثال قصيدة "تجمع حزني في سحابة سوداء" حيث الحياة مجرد فواصل قصيرة بين نوبات تواري الألم وظهوره. أو حتى مجرد استراحة قصيرة لالتقاط الأنفاس واستئناف المقاومة. تمامًا مثل هذه السحابة الحُبلى بالمطر التي تنتظر هَبة ريح كي تفرغ ما استقر في جوفها:

تجمع حزني في سحابة سوداء كنارِ الصاعقة انتشر فيها أساي،
ضرب في قلبي كـ(بيرون)،
وانهمرتْ مطراً غزيراً دموعي.
ومرت تلك العاصفة العنيفة فوقي،

لكنها لم تكسرني،
لم تسحبني إلى الأرض،
فقد رفعتُ بفخر جبيني،
وعيوني المغسولة بدموعي الآن ترى أكثر وضوحًا
وفي قلبي هتافات ظافرة تدوي.

لـــم يخفت هذا الألم ولم يتوارَ في شـــعر ليســـيا أوكراينكا، ولم يخفـــت، بالمثل، ولـــم يذوِ الأمل المفعم بحـــب الحياة. وهي تختار من أجل التعبير عن ذلك تعبيرات بســـيطة ترتبط بالطبيعة وحركة الناس من حولها. ربما لأن أوكراينكا كانت مُحبة للأغاني الشعبية وللتـــراث الشـــعبي الأوكراني. لاســـيما وأنها اهتمـــت في بداية حياتها بجمع الأغاني الشـــعبية وتدوينها. فاقتربت بذلك من الحس التلقائي الشـــعبي ومن فطرته التعبيرية البسيطة. تقول في قصيدة Contra Spem Spero:

وفي الحقل الفقير غير المزروع
سوف أزرع الزهور الملوّنة،
سوف أزرع الزهور في الصقيع،
واسقيها بدموعي المريرة.

(2)

ولو أردنا أن نشير إلى تجربة "الربيع في مصر" من حيث هي تجربة شعرية؛ لقلنا إن أوكراينكا قد استطاعت أن تضع يدها على ما يمكن أن نسميه "خصوصية" الشعب المصري. مثل هذه الخصوصية التـــي يمتزج فيها الماضي بالحاضر والفردي بالجماعي. لقد قَرأت بحدس الشاعر ما يســتقر في أعماق هذا الشعب من حزنٍ وفرحٍ. وما تتجاور في سجيته من نقائض وأضداد. وكان أن كشف خيالها الإبداعي عن ذلك المزيج المعقــد. مثلما نجد في قصيدة "عفراء" مثلاً من التقاط أوكراينكا لحالـــة الصمت الممزوجة بالخوف التي عانى منها الشعب المصري في لحظات قمع المستعمر الإنجليزي له. تقول وقد استطاعت أن تجمع في كلمة واحدة بين حاضر مصر وماضيها الفرعوني:

وسط الضجيج ودون مبالاة دفع الإنجليز قواتهم بمحاذاة ضفاف النيل

كي تســمع مصر وترتعد. ومــا إن مروا حتـــى خيّم الصمت بعدهم

كأن مزلاج كبير وثقيل انغلق في معبد مهيب

لكن أوكراينكا التي افتقدت بلدها وأهلها وسط اضطرارها للسفر هنا وهناك طلبًا للاستشـــفاء استطاعت أن تستأنس بجموع الشعب المصـــري في كل مكان وفي شـــتى الظروف. كانـــت تنظر فتقع عيناها على ما تفتقده بعيدًا عن بلدها من حركة الناس والشـــوارع والأســـواق. وكانت لديها القدرة على أن تجمع حركة يأتيها بائع أو عابر أو جماعة في ســـوق أو مَحفل أو شـــارع بحركة أو تقليد أو عُرف أو شـــعيرة تستقر في ماضي الشـــعب المصري أو تاريخه القريـــب أو البعيد. ربما لأن ليســـيا أوكراينكا كانت، بحكم تربيتها العقلية الممتازة ومعرفتهـــا بالعديد من اللغات، مطلعة على تاريخ الشـــرق والحضارات الشـــرقية عمومًا. والمعروف أن أوكراينكا كانت قد ألفت كتابًا في تاريخ الحضارات الشـــرقية أسمته "تاريخ الشـــعوب الشرقية القديم". وربما لأن أوكراينكا كانت تتمتع بحدس خاص مكنها من تعرف الماضي في الحاضر وتعرف الحاضر في الماضي. كما في قصيدة "هبة ســـرية" مثلاً، حيث رؤوس الباعة، والبضائع التي تستقر فوقها، تيجان مصرية مزدوجة:

بصوتٍ شجي في حلاوة الغناء، يمتدح الباعة بضاعتهم
وهم يحملون بفخرٍ حملهم الثقيل،
كأنه تاج يستقر فوق الرؤوس الجميلة.

تسأل أوكراينكا كيف أمكن أن يتمتع هذا الشعب بروح المرح

والفرح رغم كل ما يعانيه من ألوان الشقاء والتعاسة والظلم؟ تبحث هي، التي خبرت العديد من الشعوب عبر رحلاتها ومطالعاتها، عن الإجابة فلا تجد سوى أن الفرح هبة إلهية. تسوق هذه الإجابة وهي لا تتوقف عن قراءة الشعب المصري عبر تاريخه الطويل. تقول في القصيدة نفسها:

من أين يأتي هذا الفرح؟

أتساءل ويتخايل في رأسي

أن صوتًا خفيًا يهمس بأسطورة منسية:

(كان يا ما كان لما وُلد النيل في الصحراء وضعته أمه في مهد أخضر ثمين، وكان الأب يراقب من السماء العالية بعين الرضاء كيف كان الابن يكبر على مر الساعات - وليس الأيام - سريعًا، وكيف كان يزداد قوة، وكيف كان يحمل تلك القوة إلى البحر. وإذ اجتمعت لحظة الولادة هاتورات حكيمات بلغ عددهن سبعا حملت كل واحدة منهن هدية للطفل فقالت الأولى: "سأهبك أرضًا خصبة خالصة ملك لك" وقالت الثانية: "وستحصد ثلاثة محاصيل في السنة" وقالت الثالثة: "وسيكون رع رحيمًا بك دائمًا" ومدت الرابعة يدها قائلة : "وهذا درع النخيل يحرسك من شرور ست". أما الخامسة فوضعت البردي واللوتس، والحجر في صمت. وهمست السادسة: "لن يُذاع لك سر". ابتسمت السابعة عبر الدموع وقالت بصدق:

"لأنها تحسدك فقد توعدتك الآلهة بالعبودية الأبدية لأولادك". أما أنا فلسوف أسلح روح الشعب بفرح لا ينتهي فلا يقهره ظلم فراعنة أو نير غزاة). هكذا وعدت هاتورات حكيمات منذ غابر الزمان... وأنا واثقة أن كلمات الإلهات لن تُنكث أبدًا.

لكنَ ما يسترعي الانتباه حقًا هو احتفال ليسيا أوكراينكا برياح الخماسين وهبَّاتها المفاجئة المتسارعة. مثل هذا الاحتفال بالخماسين المصرية الذي ربما لا نجده إلا لديها أو لدى محمود مختار (1891-1934م) المثَّال المصري الموهوب، في تمثاله الشهير "رياح الخماسين". حيث يحتفل مختار بقوة الخماسين وعنفوانها وجموحها الذي دفع رأس تمثاله إلى الانحناء قليلاً إلى الأمام، ربما كنوع من مراودة جموح الخماسين وعِنادها، وربما اتقاءً للفحتها العنيفة التي تذر التراب في العيون فتجبرها على الهرب من مواجهتها. قد يكون انحناء الرأس لهذا أو لذاك، وقد يكون اتقاءً لشر السقوط إلى الوَراء بفعل قوة هبوب الخماسين. مهما كان فقوة الخماسين، في الحقيقة، ليست إلا تعبيرًا عن قوة الجسد الذي يقاومها، أو يندفع في الاتجاه المعاكس لها. إذ كلما ازدادت قوة الريح ظهرت صلابة الجسد الذي يقاومها ويعاكسها في الاتجاه. من وجهة النظر هذه يصبح انحناء الرأس وتوثب الساق اليسرى إلى الأمام وتراجع الساق اليمنى قليلاً، كما يظهر التمثال، هي وثبة الجسد الفتِي إلى

الأمام مستهينًا بقوة الريح، فخورًا بنفسه ومتباهيًا بقدرته على قهر صلف الخماسين. ولا بأس من أن تكون الخماسين، بعد ذلك، ما يمكن أن تكونه من رموز الطغيان أو الاستبداد أو قوى التخلف في العموم، وأن تكون وثبة الجسد هي وثبة شعب صوب حريته أو صوب تحرره.

كذلك رأى مختار الخماسين، وهي رؤية لا تبتعد كثيرًا عن رؤية ليسيا أوكراينكا. فقد رأت أوكراينكا في هَبة الخماسين شعيرة تستعيد من خلالها الصحراء ذكرى مقتل "أوزوريس" على يد "ست" الشرير. فبخلاف الأسطورة المعروفة تشير أوكراينكا إلى أن "ست" مزق جسد "أوزوريس" وألقى به، لا في النيل، وإنما في الصحراء. وليست هَبة الخماسين بلونها الأصفر الشيطاني إلا فرحًا واحتفالاً بفعلة "ست" الشريرة. وقد شبهت أوكراينكا الخماسين، في إحدى رسائلها إلى والدتها، بالتيفون، وهو وحش، كما يرد في الأساطير الإغريقية، شديد الخطورة. والمحصلة واحدة بين تمثيل مختار للخماسين بوصفها هَبة تحدٍ تعترض وثبة الانطلاق، وتمثيل أوكراينكا للخماسين بوصفها انتفاضة صفراء تعكر صفو الجو وتحجب ضوء الشمس، ترياق الحياة بالنسبة إلى شاعرتنا العليلة. ولو كانت الخماسين بالنسبة إلى أوكراينكا هي ذلك الوحش تيفون ذو المائة رأس؛ فإنها تظهر في قصيدتها بوصفها عروس فتنها الرقص فراحت ترقص رقصات مجنونة تلف فيها وتدور وقد توسطت

سِريَّاتها أو جواريها اللائي أخذن يرقصن بدورهنّ. ولم يكن رقص تلك السِـــريَّات أو هؤلاء الجواري إلا تطايـــر الثياب، واندفاعات الحجارة، وسقوط الأواني جراء هَبة الخماسين البرتقالية.

تقول أوكراينكا في قصيدة "الخماسين":

كأنه عرس جنوني وحشي مفرط الفرح!

تعزف الرمال مثل ناي وهي تنطلق فجأة من سباتها الثقيل،

وعلى الدفوف تضرب الأحجار الصغيرة.

مَن هناك في الضباب الأصفر المبهر يرقص احتفالاً بالخماسين؟

ترفرف أشياء مثل أغطية رقيقة

تدور راقصة بسرعة شديدة

...أهؤلاء فتيات ســرّيات للرياح؟ أطفـــال مرحون للصحراء الحزينة؟

(3)

وليست رسائل ليسيا أوكراينكا أقل أهمية من شعرها. فقد رسمت الرســـائل، التي راعينا في اختيارها أن تكون خاصة بالفترات التي قضتها في مصر، صورة تاريخية واجتماعية عن الحياة في مصر أوائل القرن العشـــرين. حيث أشـــارت إلى الميل العام بين أوساط

الطبقة الراقية إلى احتذاء طريقة المستعمر الإنجليزي في الحياة. كما وصفت أوكراينكا بكثير من التفصيل أساليب المعيشة داخل البانسيونات والمصحات التي كانت تُؤجر للأجانب في ذلك الوقت بغرض الاستشفاء. كيف يجتمع النزلاء للطعام، وكيف يجلسون ويتسلون في المساء. كما وصفت بدقة الطراز المعماري لأحد البانسيونات التي نزلت فيها خلال مدة إقامتها بحلوان أوائل يناير من شتاء 1910م، فقالت: "بُني البانسيون على طراز تلك البيوت العربية الثرية التي تحتوي على قاعة مركزية مُثمنة الزوايا على شكل الأتريوم، مع الشرفات العديدة، وقطع الزجاج الملونة على النوافذ والسقف المسطح نوعًا ما".

لقد تناولت رسائلها إلى والدتها العديد من التفصيلات التي تخص حياتها في مصر. فأشارت ضمن ما أشارت إلى اضطرارها للعمل في ترجمة العقود من أجل كسب معاشها. كما ضَمَّنت رسائلها تشخيص الأطباء لحالتها المرضية، وأثر المناخ المصري على تحسن حالتها وتحسن حالة زوجها. والأهم من ذلك إشارتها إلى تأثرها برياح الخماسين إلى درجة أن كتبت عدة قصائد بوحيٍ منها.

***

أخيرًا سيجد القارئ في هذا الكتاب شاعرة لم تعد محل تقدير في بلدها وحسب، إنما في العديد من بلدان العالم. وقد رتبنا الكتاب

بحيث يقدم صورة وافية عن أدبها وحياتها. ولو أن الكثير من أدب أوكراينكا لا يزال يستحق الترجمة. لاسيما ما يتصل منه بالشعر والمسرح. أو ما يتصل بالثقافة العربية على وجه الخصوص. كما حاولنا أن ننقل روح شعرها إلى العربية دون أن يفقد الكثير من حضوره وتأثيره في لغته الأم. والآن نضع محاولتنا هذه بين يدي القارئ، على أمل أن تكون مُفتتحًا لترجمات أخرى تتناول أعمالها، أو ما سواها من الأدب الأوكراني.

يجب أن نشير، في الختام، إلى الاهتمام والرعاية اللتين أحاط بهما السفير الأوكراني بالقاهرة هينادي لاتي الكتاب، وما قدمه من عونٍ لولاه لم يكن لهذا الكتاب أن يجد طريقه إلى القراء، فليتقبل شكرنا وامتناننا. كما يشكر المترجمان السادة العاملين بمتحف الشخصيات البارزة للثقافة الأوكرانية Museum of Eminent Ukrainian Culture Personalities (*) على ما قدموه من تعاونٍ وما أتاحوه لنا من مصادر لولاها لم يكن الكتاب ليخرج بصورته الحالية.

المترجمان

كييف/ القاهرة في 27 فبراير 2017م

(*) يتألف متحف الشخصيات البارزة للثقافة الأوكرانية في كييف من عدة متاحف هي متحف ليسيا أوكراينكا Lesya Ukrainka، ومتحف ميكولا ليسنكو Mykola Lysenko المؤلف الموسيقي المجدد، ومتحف باناس ساكساهانسكي Panas Saksahanskyj الممثل والمخرج المسرحي الكبير، ومتحف ميخايلو ستاريتسكي Mykhailo Starytskyi الكاتب والمخرج المسرحي المعروف.

القسم الأول

مختارات من شعر ليسيا أوكراينكا

أولاً: ديوان الربيع في مصر

الخماسين

الخماسين البرتقالية في الصحراء هبت،
مُلتهبة شوقًا تندفع في الهواء،
وهي تلمس الرمال بأجنحتها الجافة
وتلفح بلهيب أنفاسها القوية.

كأنه عُرس جنوني وحشي مفرط الفرح!
تعزف الرمال مثل ناي وهي تنطلق فجأة
من سُباتها الثقيل،
وعلى الدفوف تضرب الأحجار الصغيرة.

مَن هناك في الضباب الأصفر المبهر يرقص
احتفالاً بالخماسين؟
ترفرف أشياء مثل أغطية رقيقة
تدور راقصةً بسرعة شديدة...
أهؤلاء فتيات سرّيات للرياح؟
أطفال مرحون للصحراء الحزينة؟

"أيتها الغريبة، لا تنظري! سأذرّ الرمال في العيون!"
(وبطرف ردائها الأصفر أخفت الخماسين
رَاقِصَاتها
كأنها تغار
يجب أن لا ينظر إليهنّ أحد).

وسط الصحراء ينبطح العربي أرضًا،
مثلما يفعل أثناء الصلاة.
"طبعًا! صلِّ! صلِّ!

أنا الإله القديم، أنا هو ست الجبار
الذي مزق جسدَ أوزيريس الخالد
ورمى به في الصحراء.
أوه، كيف عندها أجهشت إيزيس بالبكاء؟
وفرحت الخماسين للذكرى،
كأن الصحراء كلها اندفعت إلى الأعلى صوب السماوات
وغابت الشمس -عين أوزيريس- في قلب الغيوم الصفراء
أظلمت... كأن العالم كله أظلم...

1910/4/5

تنفس الصحراء

تتنفّس الصحراءُ، تنفّس مُنتظّم حُرّ،
ساخن ونقي نقاء الطهارة.
في سكونٍ تمتدّ الرمال الذهبية
على نحوٍ ما تركتْها الخماسينُ العاتية.

وها هو الفلاح يعمل صامتًا في سكينةٍ ويقظةٍ،
يبني بيتًا هناك،
حيث سينبت حوله بستان كثيف،
وحيث سيعيشُ سرب من الرحالة سريع التنقل،
رخي البال.

إن الفلاح على كل شيء قدير،
يُفلح الواحات وسط الصحراء،
ولكن ليس لأجل نفسه.

ها هو يرسم زخرفة تحت سقف المنزل.
بينما تعبث الريح الساخنة بملابسه،
وتجفف عرقه.
وفي السهل ستهبّ بعيدا... مرة بعد مرة... تتنفّس الصحراء.

حلوان في 1910/4/5

عفراء

صمت
الهواء ساكن كالمياه الراكدة
على أشجار الموز تحجَّر ورق متشقق عريض
حتى أوراق الميموزا(*) الناعمة فتحت أوراقها
الصغيرة الساخنة
تحلم من دون أحلام....

(*) نوع من الشجر يُستخدم للزينة ويتميز بحساسيته المفرطة حتى إن أوراقه تسارع بالانغلاق والانكماش بمجرد أن تلمسها يد. ولذلك يُسمى في مصر "شجرة الست المستحية".

آه، من أين يا تُرى خرج هذا الصفير؟
في الأبواق ينفخون ويقرعون طبولاً تصم الآذان
أفيقوا، هيا! من هذا العذاب أراد؟
(وسط الضجيج ودون مبالاة دفع الإنجليز قواتهم
بمحاذاة ضفاف النيل
كي تسمع مصر وترتعد.
وما إن مروا حتى خيّم الصمت بعدهم
كأن مزلاج كبير وثقيل انغلق في معبد مهيب).

في استسلام تدلت أغصان النخيل الجافة الحزينة
كأنها انثنت تحت يد الله الخفية
السماء المضيئة بنار القيظ
أخذت تكتسي بلون الرماد
احترق النهار حتى النهاية وبقيت الليلة الشاحبة.
انحسر الضوء ولم يأت الظلام كأنه يهاب أن يحل
فى الصمت الثقيل

والنجوم غاصت في بطن السماء
كأن العالم صار خلاء
حتى الطيور سكنت
فقط بدون صوت حلقت خفافيش كثيرة وغريبة
كأنها رسول الصمت في كل مكان
وطيرانها المخملي يزيد وطأة السكون أكثر فأكثر

مصر، حلوان في مارس 1910

ليلة عاصفة

فى ليلة حالكة السواد
كما سواد عيون المصريات
هبت الريح بجنون من الشمال
كأنها تفر بعيدًا فوق صهوة جواد.

يبدو أن ريح بلدي العزيزة قد أصبحت ساخنة
صارت ملتهبة كتلك الخماسين المندفعة الثائرة
أمن زمانٍ غادرتِ بلدي المسكين؟!

هنالك كانت الريح فوق الثلوج الذائبة
تجر ثيابها الثقيلة الرطبة
تتسلل ببرودتها إلى المنازل
وتئن كالبومة في المروج الشاحبة.

هل أشعلتها حبًا فجأة هذه الصحراء الذهبية
التي تهب فوقها مشتعلة
كأنها ليست بنت الشمال؟

دخلت إليَّ من النافذة
ورمت المنزل المظلم بذلك الرمل الرنَّان
فكأنما ألقت بجمرات مشتعلة وولت هاربة.

حسنا، طيري، فأنا لا أبالي.
لقد أصبحتِ غريبة هنا في هذا البلد

ما دامت صَلصَلة هبوبك لا تحمل لي صدى صوت
بلدي البعيد
فقط أنشودة حب صحراوية.

1910/4/9

ضيف من الشمال

حقًا ودون مبالغة وصل ضيف من الشمال
نظرت في الصباح
فإذا السماء ملبدة بغيوم رمادية،
وشيئًا فشيئًا بدأ الرذاذ يتساقط،
وإلى البيت دخلتْ
الريح الفاترة دلفت إلى البيت
باردة رطبة،
كأن بطلتنا خمدت..!

ماذا جرى؟ هل ملت الصحراء زياراتها المتكررة؟
أم تذكرت حبيبها البعيد وذرفت دموعًا مُرة فوق
الأرض الغريبة؟
تهمس الريح
في الأوراق المُنداة تهمس الريح:
"ها أنا ذا من بلدك أتيت
بهذه الأخبار المُبكية جئت
فأي صدى آخر تريدين؟"

حلوان في 1910/4/10

هبة سرية

لا تعرف مصر أن تبكي طويلاً.
غسلت نخيلها،
بللت خضرة الحقول النضرة والغزيرة على ضفاف النيل
وجددت الطلاء المذهب اللامع في الصحراء الشاسعة،
ابتسمت مرة أخرى - أفراح أبي الهول السرية!
أرى عيون المصريات تضحك من وراء الطُرح السوداء،
حجب الإسلام المرأة، ولكن عيونها ظلت حرة!

بصوتٍ شجي في حلاوة الغناء، يمتدح الباعة
بضاعتهم
وهم يحملون بفخر حملهم الثقيل،
كأنه تاج يستقر فوق الرؤوس الجميلة.

سقَّاء يمشي في ملابس حمراء يقرع الكؤوس
كأنه يلعب
ومن قلبه يصب للناس العطاش سريعًا
الماء البارد والعذب من الوعاء الثقيل
مخلوطًا بعصير فاكهة، ويتقاضى الأجر راضيًا.

أطفال الفلاحين الفقراء يمرحون في الشمس
مسرورين
رؤوسهم الصغيرة سريعة الحركة
عيونهم تلمع فضولاً

يطلبون "البقشيش" من السائح كأنه لعبة أطفال مسلية
أعطيتهم أو لم تعطهم سيضحكون كأن الأمر سيان
بالنسبة إليهم
يكفي أن يكون لديهم عود من القصب الحلو
يمصونه بفرح وحبور كأنهم يحوزون كنزًا

من أين يأتي هذا الفرح؟
أتساءل ويتخايل في رأسي
أن صوتًا خفيًا يهمس بأسطورة منسية:
(كان يا ما كان لما وُلد النيل في الصحراء وضعته
أمه في مهد أخضر ثمين، وكان الأب يراقب
من السماء العالية بعين الرضاء كيف كان الابن
يكبر على مر الساعات - وليس الأيام - سريعًا،
وكيف كان يزداد قوة، وكيف كان يحمل تلك القوة
إلى البحر. وإذ اجتمعت لحظة الولادة هاتورات
حكيمات بلغ عددهن سبعا حملت كل واحدة منهن
هدية للطفل فقالت الأولى:

"سأهبك أرضًا خصبة خالصة ملك لك"
وقالت الثانية: "وستحصد ثلاثة محاصيل في السنة"
وقالت الثالثة: "وسيكون رع رحيمًا بك دائمًا"
ومدت الرابعة يدها قائلة: "وهذا درع النخيل يحرسك من شرور ست"
أما الخامسة فوضعت البردي واللوتس، والحجر في صمت.
وهمست السادسة: "لن يُذاع لك سر".
ابتسمت السابعة من خلال دموعها وقالت بصدق: "لأنها تحسدك فقد توعدتك الآلهة بالعبودية الأبدية لأولادك، أما أنا فلسوف أسلح روح الشعب بفرح لا ينتهي فلا يقهره ظلم فراعنة أو نير غزاة".
هكذا وعدت هاتورات حكيمات منذ غابر الزمان...
وأنا واثقة أن كلمات الإلهات لن تُنكث أبدًا.

مصر، حلوان. 23-30 مارس 1910

حلم

السماء صافية والجو دافئ... أ نحن في مصر؟
نعم، نحن في مصر..
حيث السماء العالية خيمة زرقاء تتلألأ بالضياء
أهٍ ما أعلاها!
كم أشعر بالحرية والفرح!
نعم.. إنها مصر

كم أشعر بالهدوء والراحة... هل نحن في أوكرانيا؟
نعم،.. نحن في أوكرانيا
ها هو البستان والمروج الخضراء ومنزل العائلة

ها هي أشجار الحور الرومي الغامقة
والبركة على سطحها يطفو عَدس الماء
نعم، إنها أوكرانيا.

توقف أيها المسافر
توقف هنا
ولتكن نهاية ضياعك هنا.

كل شيء سيكون على ما يرام..
أنا وأنت يا بلدي الحبيب شُفينا من الآلام
ليست السماء مريضة... لا تبكي ولا تعبس
أشعر بالمرح وكذلك الناس من حولي
لا توقظوني من منامي
من منامي لا توقظوني
كل شيء سيكون على ما يرام.

1910/4/7

ثانيًا: مجموعة قصائد (ألحان)
من ديوان (الأفكار والأحلام)

ألحـان(*)

1
كانت ليلة هادئة وحالكة

كانت ليلة هادئة وحالكة،
كنتُ واقفة، يا صديقي معك،
كنتُ أنظر إليك بأسى،
كانت ليلة هادئة وحالكة...

كانت الريح تتنهد بحزنٍ في الحديقة.

(*) من ديوان "الأفكار والأحلام".

كنتَ تغني،
كنتُ جالسة في صمت،
كانت أغنية في قلبي ترنّ؛
كانت الريح تتنهد بحزن في الحديقة...

اشتعل الفجر بعيدًا.
آه، ما أكبر الحزن الذي تملكنيّ!
وطعن قلبي بسكين حادّ...
اشتعل الفجر بعيدًا...

2
لا تغنوا لي هذه الأغنية

لا تغنوا لي هذه الأغنية،
لا تجرحوا قلبي!
ينام حزني نومًا خفيفًا في قلبي،
فلماذا توقظونه بالغناء؟

أنتم لا تعرفون فيما أفكر
لمّا أجلس شاحبة في صمت.
حينئذ في عمق قلبي
تنتحب هذه الأغنية الحزينة!

3
يحترق قلبي

يحترق قلبي
أشعلته شرارة الحزن المحرقة المتوهجة.
لماذا لا أبكي إذن بدموعٍ غزيرة؟
لماذا لا أطفئ النار الرهيبة؟

روحي تبكي، روحي تتمزق،
لكن الدموع لا تتدفق سيلاً جامحًا،
لا تصل عينيّ تلك الدموعُ
لأن الشوق يجففها بنيرانه الحارقة..

أود لو ذهبت إلى الحقل، لو وقفت في العراء
أضع وجهي على الأرض الرطبة
وأنتحب حتى تسمع النجوم،
حتى يرتعب الناس من دموعي.

4

مرة أخرى الربيع ومرة أخرى الآمـــال

مرة أخرى الربيع ومرة أخرى الآمال
في قلبي المريض تنتعش الحياة
مرة أخرى تهدهدني أحلامي
تستدعي أحلامًا عن السعادة.

ما أجمل الربيع!
أحلامي العزيزة!

أحلامي السعيدة في المنام!
أنا أحبك، رغم أنني أعلم
أنكِ غادرة...

5
أنظر إلى النجوم الساطعة

أنظر إلى النجوم الساطعة،
حزينة أفكاري، حزينة.
تبتسم لي النجوم اللامبالية
بأشعتها الباردة.

أيتها النجوم، النجوم اللامبالية!
كنتِ فيما مضى مختلفة،
حين كنتِ في قلبي
سُمًا حلوا تصبين.

6
وقفت وأنا استمع إلى الربيع

وقفت وأنا استمع إلى الربيع،
كان الربيع يحدثني كثيرًا،
يغني أغنية رنّانة صاخبة
ثم يعود يهمس في الخفاء همسًا خافتًا.

كان يغني لي عن الحب،
عن الصِبا، والمسرات والآمالي
يغني لي من جديد
ما كنت أتغنى به في أحلامي.

7
كنت أتمنى لو أصبحت أغنية

كنت أتمنى لو أصبحت أغنية
في هذه اللحظة الصافية،
حتى تطير حول العالم بحرية
وتحمل الرياح صداها.

حتى تبلغ النجوم الساطعة
تلك الأغنية الرنّانة،
وتسقط على الأمواج الشفّافة،
وتهدر فوق البحر المتقلب.

لرنّت حينئذ أحلامي
وسعادتي الخفية
وهي أكثر سطوعًا من النجوم الجلية،
وأكثر هديرًا من البحر الهدّار.

1893 أو 1894

8
انتصـــار

لوقتٍ طويلٍ لم أكن أريد أن أصغي للربيع،
لم أكن أريد أن انصت إليه،
ذلك الكلام اللطيف الساحر
كنت أخشى أن يصدقه قلبي.

"لا، لا تنادِني أيها الربيع - قلت له -
لا تفتنني ولا تغوني سدىً.
ما لي وذلك الجمال المرح الباهر؟
وقلبي حزين ومظلم.

نادى الربيع "اسمعيني!
كل شيء يستجيب لغوايتي وسحري
فالغابة المظلمة نسيت فصل الشتاء الحزين
واكتست كسوتها الخضراء الجميلة؛
وردّت عليّ السحابة السوداء رعدًا صاخبًا،
وأُضيئت بنار البرق،
تغطت الأرض الداكنة بالأعشاب الخضراء
الصغيرة.
الكل أطاعني مثل ملك متوج؛

دعي قلبَكِ المظلم هو الآخر يعود إلى الحياة
ويستجيب لغنائي الفرح،
مثلما استجاب لندائي كل حي
إن قلبك لحي... ما زال بحب الحياة ينبض.

تهمس لي نفسي، بصوتٍ خافت تهمس لي:
"لا تصغي لغواية الربيع!"

بلا جدوى يتردد الشك في نفسي،
فقد استيقظت الأحلام والألحان في قلبي...
أيها الربيع، يا من لسحرك خضع الجميع
لقد انتصرت
لبيك يا فاتني.

1893/5/14

9
إلى إلهة الإلهام

تعالَيْ إليّ، يا ساحرة عزيزة،
واشتعلي نجمة فوقي،
دعي شعاعك يغمرني
لأن القدر تغلب عليّ مرة أخرى
مرة أخرى مقهورة أنا، ليست عندي قوة للمقاومة.

لست حزينة، وكنت أعلم أن هذا سيحدث
هادئة أنا، ولا أرغب في المقاومة.

في روحي رغبات أخرى:
بالتفكير فقط في العالم سأعيش،
أريد أن أسمع كلامكِ الساحر
وعلى جبيني
أتمنى أن أشعر بضيائك ولو للحظة واحدة.

1894/1/13

10
تلك كانت ليلة هادئة ساحرة

تلك كانت ليلة هادئة ساحرة،
كغطاء ساكن واسع
انبسطتْ فوق القرية،
كان يستيقظ في الأفق الفجرُ،
كأنه في البحيرة الهادئة العميقة
كانت البجعة ترفرف بجناحها الأبيض.

ونحو كل رفرفة مشرقة
يندفع قلبي، يخفق يأسًا،

أو تتوقف ضرباته في معركة صعبة.

لقد تعبت من السباقات الدامية،
وكنت أرغب في أن أغني لك أغنية البجعة.

11
الربيع الذي كان

جاء الربيع مرحًا لطيفًا
يلهو فرحًا بأشعة الشمس
ينثر الزهور وهو يطير سريعًا كأن له مائة جناح
ومن وراءه تصدح الطيور.

كل شيء عاد إلى الحياة،
كل شيء بدأ يضجّ،
الضوضاء الخضراء، الصدى المرح!
كل شيء يغني ويضحك ويرنّ

وحدي كنت أرقد مريضة ووحيدة.

كنت أفكر: "أتى الربيع،
حاملاً هداياه للجميع
ولي فقط لم يحمل هدية،
لقد نسيني الربيع البهيج".

لا، إنه لم ينس!
إلى نافذتي تسللت أغصان شجرة التفاح،
بدأت ترفّ الأوراق الخضراء الصغيرة،
وتتساقط الزهور الناصعة البيضاء.

وهبت الريح،
في المنزل الضيق بدأتْ تغني عن حرية الربيع،
وجاءت معها أغاريد الطيور،
والغابة العزيزة أرسلت صداها معها.

لن تنسى روحي أبدًا هدية الربيع
ربيع كهذا لم يكن
ربيع كهذا لن يكون
ذلك الربيع الذي كان يزدهر خلف نافذتي.

1894م

12
تجمع حزني في سحابة سوداء

تجمع حزني في سحابةٍ سوداء
كنارِ الصاعقة انتشر فيها أساي،
ضرب في قلبي كـ(بيرون)(*)،
وانهمرتْ دموعي مطرًا غزيرًا.

مرت تلك العاصفة العنيفة فوقي،
لكنها لم تكسرني،

(*) بيرون (Perun): إله الرعد والبرق في الميثولوجيا السلافية.

لم تسحبني إلى الأرض،
بفخر رفعت جبيني،
وعيوني المغسولة بدموعي ترى الآن أكثر وضوحًا
وفي قلبي هتافات ظافرة تدوي.

نبض الربيع يسري في روحي،
لم تهزمها برودة الشتاء الشديدة،
لم يسحبها إلى الأرض الضباب الثقيل،
حتى هذه العاصفة الربيعية العابرة لم تكسرها.
سأخرج أنا وحدي ضد العاصفة
وسأقف، لأباريها في القوى!

ثالثًا: متفرقات

Contra spem spero![*]

ابتعدي أيتها الأفكار، غيوم الخريف أنتِ
أنتِ غيوم الخريف
الآن وقت الربيع الذهبي،
وإلا ستنقضي سنوات الشباب في الحزن،
في العويل.
لا،
أريد أن أضحك حتى وأنا أبكي
ووسط البلاء أغني الأغاني
ولو بلا أمل، مهما يكن من أمر سآمل

(*) تعني في اللاتنية سآمل حتى لو لم يكن هناك أمل.

أريد أن أعيش! ابتعدي، أيتها الأفكار الحزينة!

وفي الحقل الفقير غير المزروع
سوف أزرع الزهور الملوّنة،
سوف أزرع الزهور في الصقيع،
واسقيها بدموعي المريرة.

ومن تلك الدموع الساخنة ستذوب
تلك القشرة المجلدة، الصلبة،
وقد تنبت الزهور ويمر بي
أنا أيضًا الربيع المرح.

وعلى الجبل الصلب شديد الانحدار
سأحمل الحجر الثقيل
ولمَّا أحمل ذلك الحمل المخيف،
سأغني أغنية مفرحة.

وفي الليلة الطويلة الظلماء الدامسة
لن أغمض عينيّ ولو للحظة
بل سأبحث عن النجمة الهادية،
الملكة الزاهية لليالي الحالكة.

نعم! سأضحك وسط الدموع،
ووسط البلاء سأغني الأغاني
مهما يكن، ولو بلا أمل، سآمل
سوف أعيش!
ابتعدي، أيتها الأفكار الحزينة!

2 مايو 1890م

إلى البيانو الخاص بي(*)

أيا صديقي القديم!
إني مضطرة أن أفارقك لفترة طويلة... للأسف!
تعوّدتُ أن أشاطرك أحزاني،
وأن أحدثك عن أفكاري المرحة والحزينة.

كنتَ شاهدًا، يا صديقي القديم الوفيّ

(*) يمكن أن نقول إن القصيدة سيرة ذاتية على أن نتخلى عن التعقيدت الكثيرة التي تحيط بتعريفٍ كهذا. فقد كانت ليسيا أوكراينكا تعزف البيانو منذ أن كانت في الخامسة من عمرها، كما كانت تلحن الموسيقى. وفي هذه القصيدة تعبر الشاعرة عن ألمها وحسرتها لأنها لن تستطيع بعد ذلك أن تعزف على البيانو بسبب مرضها الخطير. في هذا الشعر تودع الشاعرة البيانو الخاص بها الذي كان بالنسبة لها بمثابة صديق حميم تحدثه عن أفراحها وأحزانها.

كيف كانت تمضي حياتي في الطفولة.
ولما أجلس أمامك في وقت المساء،
تنثال علي حينئذ ذكريات كثيرة!

أتذكر المشهد:
اجتمعت جماعة صغيرة،
يتحدثون، ويغنون، وينادون،
وعلى مفاتيحك لحنًا راقصًا سريعًا رنانًا
تعزف يد مرحة لشخص ما.

ولكن من الذي يبكي هناك في البيت الآخر؟
لمن هذا النحيب المكتوم والثقيل؟..
لا تقدر أن تخبئ الأسى مثل هذه الطفلة الصغيرة،
يمزق قلبها شعور مرير.

لماذا بكيتُ آنذاك، لماذا انتحبت؟

كم كان كل شيء آنذاك من حولي مرحًا..
آه، بالتأكيد، كان قلبي يشعر بالعذاب
الذي كان يزحف إليّ، مثل سحابة رهيبة!

عندما كنت أعزف حزني على الأوتار،
كان يظهر سرب كبير من الأحلام الجميلة،
بألوان قوس قزح، كان يتلألأ أملي،
وطيف شاحب من الأفكار كان يذهب بعيدًا.

نفترق لفترة طويلة أنا وأنتَ!
سوف تبقى وحيدًا في العزلة الخرساء،
ولن يكون عندي من أقاسمه أحزاني...
وداعًا إذن صديقي القديم العزيز!

15 مارس 1890

أيا حلمي لا تخنّي![*]

أيا حلمي لا تخنّي! لقد كنتُ أحِنّ إليك طويلاً،
كثيرًا من الأيام الحزينة، كثيرًا من الليالي المؤرقة،
والآن علقتُ عليك أملي الأخيرَ
آه، لا تنطفئ يا نور العيون المؤرقة!

أيا حلمي لا تخنّي!
لطالما كنتَ تسكب سحرَكَ في قلبي الظامئ
حتى فاض قلبي أملاً.
والآن لن تجعلني الأوهام أتخلى عنك،

(*) نُشرت ضمن قصائد متفرقة بعد وفاة ليسيا أوكراينكا.

ولن تخيفني معاناة ولا حزن ولا موت.

لقد تخليتُ منذ وقت طويل عن الأحلام الأخرى
من أجلك.
وها أنا ذا عن الحياة أتخلى
حان الوقت فتمردتُ بروحي على نفسي،
والآن لم يعد ممكنًا التراجع.

فقط الحياة بالحياة!
فلتحيا يا حلمي!
ولتصيري يا كلمة جسدًا، حان الوقت لتصيري
جسدًا
مَن عبَر البحار وأحرق السفن خلفه، لن يموت حتى
يجني خيرًا.
أيا حلمي، كنتَ فيما مضى تحلق فوقي نسرًا
امنحني جناحيك، أحتاج إليهما،

أريد أن أزفر نيران عشقي، أن أعيش ربيعك،
وإذا كان عليّ أن أموت من أجل ذلك، فلا أبالي!

1905/8/3م

أن أترك كل شيء وآتي إليك

أن أترك كل شيء كل شيء وآتي إليك
يا زهرتي الوحيدة، يا زهرتي الذابلة!
أن أترك كل شيء، كل شيء لأهلك معك
تلك نعمة يا كوني المفقود!

أن أقف فوقك وأدعو ذلك الشبحَ الشرير
الذي ينتزعك مني للقتال
أن استردك أو أموت معك
وتموت معنا السعادة والحزن.

1900/11/16

دائمًا تفوح من رسائلك رائحة الورود الذابلة(*)...

إن رسائلك تفوح منها دائمًا رائحة الورود الذابلة، يا زهرتي المسكينة الذابلة! أريج رقيق خفيف، مثل ذكرى عن حلم ماضٍ عزيز. وليس هناك ما يمس قلبي الآن مثلما تمسه هذه الرائحة، بلطافةٍ وبرقةٍ ولكنها تذكرني بشكل حتمي ومؤكد بما ينذرني به قلبي وبما لا أريد ولا أستطيع أن أصدقه. يا صديقي، صديقي العزيز الذي خُلق من أجلي، كيف يمكنني أن

(*) نُشرت ضمن متفرقات بعد وفاة ليسيا أوكراينكا.

أعيش وحدي، الآن، لمـــا أبدأ حياة جديدة؟ آه، كنت أعرف حياة أخرى، مفعمة بنوعٍ من الســـعادة الحادة الممزوجة بالأسى والشوق، سـعادة كانت تُحرِقني وتعذّبنـــي وتُجبِرني على لَـــوي ذراعيّ وأن اختبط واختبط بالأرض، في رغبة وحشية في التلاشي، أن اختفي من هذا العالم حيث السعادة والحزن متشابكان بهذه الطريقة الجنونية... ثم انقطعت السعادة والحزن فجأة كنشيج طفل، ورأيتُكَ أنتَ. كنتُ أراك من قبل، ولكن ليس بنفس الوضوح، أما الآن فذهبت إليك بكل روحي، كما يذهب طفـــل دامع العينين إلى أحضان مـــن يلاطفه. لا بأس بأنك لم تحتضنني أبدًا، لا بأس بأنه لم تكن بيننا ولـــو حتى ذكرى عن القبلات، آه، ســـوف أهرب إليك من أقوى الأحضان ومن أحلى القبلات! معك فقط لســـتُ وحيدة، معك فقط لســـتُ غريبة. أنـــت فقط تعرف كيف تنقذني من نفســـي. كل ما يضنيني، كل ما يعذّبني، أنا أعلم، ستمســـحه بيدك المرتجفة الرقيقـــة - إنها ترتجف كالوتر- كل

ما يكدّر روحي، ستطرده بشعاع عيونك المشرقة -
آه، ليســت عند الناس الصامدين للحياة عيون كهذه!
هذه عيون من بلد آخر...
يا صديقي، يا صديقي، لماذا تفوح من رسائلك رائحة الورود الذابلة؟
يــا صديقي، يا صديقي، لماذا لا أســتطيع، إذا كان الأمر كذلك، أن أغمر يديــك، يديك اللتين ترتجفان مثل الأوتار، بدموعي الساخنة؟
يــا صديقي، يــا صديقي، يا تُرى هل ســأهلك وأنا وحيــدة؟ آه، خذْني معك، ودَع الورود البيضاء تذبل فوقنا!
خذني معك.
ربما لديك حلم آخر، حيث أنا غير موجودة؟
يا عزيزي! ســأبني لــك عالمًا، عالمًــا جديدًا لحلم جديــد. مــن أجلك أنــت بــدأتُ حلم حيــاة جديد، من أجلــك مــت وانبعثــتُ. خذني معــك. أخاف جدًا أن أعيش! حتى لو كنت ســأعيش شــبابي من

جديـــد فإنـــي لا أريد الحيـــاة. خذني معك، ســـوف نمشـــي بهدوء وســـط غابة من الأحلام وســـنضيع نحـــن الأثنان شـــيئًا فشـــيئًا بعيـــدًا. وحيثمـــا كنا، دع الـــورود تذوي، تذوي وتفـــوح منها رائحة مثل رائحة رسائلك العزيزة، يا صديقي...

وعبر الظلام، نحو الفضاء أمدّ يديّ إليك، خذني، خذني معك، ولسوف يكون هذا خلاصي.

آه، أنقذني يا حبيبي!

ولتذبل الورود البيضاء والوردية والحمراء والزرقاء.

1900/11/7

القسم الثاني

مختارات من رسائل ليسيا أوكراينكا

رسالة إلى أولها كوساتش الأخت(*)

1 ديسمبر 1909 حلوان

18/(**)XI 1909, Hélouân(***)

يا ليليينكو(****)!

وصلنا إلى حلوان أول أمس(*****)، دون أن نتوقف في الإسكندرية أو في القاهرة. بالأمس لم أقدر على الكتابة واليوم أنا متعبة جدًا أيضًا ويؤلمني ظهري. والكتابة صعبة كذلك لأني لم أخرج بعد متعلقاتي

(*) أولها كوساتش: (1877-1945م) الشقيقة الصغرى لليسيا أوكراينكا.

(**) هكذا في الأصل جميع الشهور مكتوبة باللاتينية.

(***) سوف يلاحظ القارئ أن التاريخ العربي المكتوب أعلاه يتقدم عن التاريخ الروماني المكتوب على يسار الصفحة بحوالي 13 يومًا، ويعود هذا الفارق إلى أن العالم كان يمضي في ذلك الوقت بتقويمين: اليوليانـي والغريغوري، وكان التقويم اليولياني يتأخر عن التقويم الغريغوري بحوالي 13 يومًا.

(****) تخاطب ليسيا أوكراينكا أختها باسم الدلع الذي كان أفراد العائلة ينادونها به ومعناه "زهرة الزنبق".

(*****) في أول زيارة لليسيا أوكراينكا إلى مصر رافقها زوجها.

الشخصية. نعيش حتى الآن في فندق مقابل أجر يومي، وليس لدينا عنوان ثابت. ولما نستقرّ في السكن، سأكتب لكم. الجو هنا جميل ودافئ، إنه صيف تمامًا.

دمتِ بالصحة.

أقبّلكم جميعا.

ليسيا

اكتبي على العنوان: Caire, Poste Office, Poste restante (*)

(*) القاهرة، مكتب البريد، يحفظ بالبريد حتى الطلب.

رسالة إلى أولها كوساتش (الوالدة)

3 يناير 1910 حلوان

Egypte, Hélouân les Bains, Villa Continental, 21/XII 1909

أمي الغالية!

كل سنة وأنت بخير! لقد حلت السنة الجديدة هنا - وفقًا للتقويم الجديد(*) - وحين تصلك رسالتي، سيكون العام الجديد قد حل في كل مكان. ولكن، في الحقيقة، لن يغير هذا من الأمر شيئًا... ومن يعيش حياة بدوية جديدة كتلك الحياة التي أحياها، في الواقع من الأفضل له أن يقلع عن تلك التقاليد، إذ ليس بلا سبب كان "الأسرى المساكين" يلعنون ماروسيا بوهوسلافكا لأنها ذكّرتهم بـ"عيد

(*) التقويم القديم والتقويم الجديد: منذ عام 1900م وحتى عام 2099م ينشأ بين التقويمين فارق قدره 13 يومًا، يتأخر بها التقويم اليولياني عن التقويم الغريغوري. أي عندما يكون 7 يناير طبقًا للتقويم الغريغوري (التقويم الميلادي الساري حاليًا)، يكون بالنسبة إلى التقويم اليولياني 25 ديسمبر.

الفصـــح" في الغربة(*)... وها هو اليوم 12/21 - عيد ميلاد البابا... كم كنت أنسى هذا اليوم والبابا على قيد الحياة، والآن تذكرته بحزنٍ شديد!.. لماذا لم أكن، في الواقع، أبالي كثيرًا بتلك المناسبات عندما كانت تســتطيع أن تعطيني بعض الفرح؟ ولمــاذا دائمًا احتفل بها بحزن؟..

ولكن، ما فائدة الكلام عن هذا؟

لقد مضى أســبوع وأنا وحدي. اضطرّ كلونيا(**) إلى المغادرة قبل موعد انقضــاء الإجازة لأن البواخر إلــى باتومي(***) نادرة بحيث لم يكن ممكنًا اختيار الوقت المناسب. لقد استعاد هنا صحته، واختفى السعال تمامًا، أما حلقه فإن لم يتعافَ تمامًا (لأن ذلك يحتاج إلى وقت أكثر)، فقد تحسن بشــكلٍ كبير. والأهم من ذلك، فقد أكد

(*) ماروسيا بوهوسلافكا: بطلة أسطورية من الفلكلور الأوكراني عاشت في القرن الـ16 أو الـ17. إنها معروفة قبل كل شيء كبطلة القصائد الغنائية الملحمية الأوكرانية (الدومات)، ويشير لقبها "بوهوسلافكا" إلى أن أصلها من مدينة بوهوسلاف. وماروسيا اسم تدليل من "ماريا". اُختطفت ماروسيا وبيعت إلى الحريم التركي. تروي قصيدة الدوما كيف كسبت ثقة السلطان وتمكنت من الوصول إلى مفاتيح القصر، بما في ذلك السجن، واستخدمتها لإطلاق سراح مجموعة من القوزاق الأوكرانيين الذين كانوا مسجونين لمدة 30 عامًا. ولم تهرب معهم، مع ذلك، وبقيت في الحريم حيث كانت هذه هي الحياة الوحيدة التي عرفتها. و"عيد الفصح": ذكرتهم ماروسيا بأنه في "الأراضي المسيحية" اقترب حلول عيد الفصح وكان القوزاق السجناء يلعنون ماروسيا لأنها بذكرها وطنهم زادت من حدة جروحهم العاطفية.

(**) كلونيــا: هو كليمينت كفيتــكا (1880-1953م): باحــث أوكراني متخصص في الموسيقى الأوكرانية الفولكلورية. زوج ليسيا أوكراينكا. و"كلونيا" هو اسم تدليل.

(***) باتومي: مدينة وميناء في جورجيا، تقع على شاطئ البحر الأسود.

أخصائي محلي أنه لا توجد إصابة سل في الحلق (كنت أخاف هذا جـــدًا) وأن هذا مجرد ضعف يعود، في الحقيقة، إلى الضعف العام للرئتين، وهو الشـــيء الذي يحدث كثيـــرًا بعد Blutsturz(*) وعادة ما يشفى بشـــكل جيد، ولكنه يتطلب الرعاية والوقت وكذلك المناخ الجاف. وبالتالـــي فإن الخطوة التالية الآن هي محاولة الانتقال إلى مكان ما أكثر جفافًا، ولو في القوقاز (على سبيل المثال إلى محافظة يريفان)، يرى كلونيا أن هذا سيكون ممكنًا. ولو حدث هذا لكان جيدًا جـــدًا، لأنه في هذه الحالة، لـــو كان علينا أن نذهب إلى مصر مرة أخرى، فسوف نستطيع - على الأقل - أن نؤخر موعد السفر ونقدّم موعد الرجوع إلى البيت. وعلى الأرجح سنضطر إلى السفر حتى لو لم يُكتب لي الشفاء التام (لا يزال هذا محل شك)، لأني، على كل حال، أشعر نفسي هنا أفضل من أي مكان آخر منذ أن بدأت تؤلمني كلوتـــيّ. توقف ظهور الدم (وفي تيلافـــي(**) كان يظهر كل ليلة)، ودرجة حرارتي نادرًا ما تتجاوز المعدلات الطبيعية. والأهم، كأن طاقة الجســـم هنا تزداد، ورأســـي أيضًا لا يصيبـــه الصداع بنفس الكثرة (فقط بعد الوصول عانيت الصداع لأكثر من أسبوع).

لقد حاولت تغيير المنزل (كنت أبحث عن مكان أرخص) وانتهى الأمر بأن عدت إلى حيث نزلت في البداية، وسأقيم هنا حتى النهاية.

(*) بالألمانية وتعني: نزيف الدم

(**) تيلافي: مدينة في جورجيا.

التكلفة هي هي نفسها غالية في كل مكان هنا، ولكن في البانسيون الآخر كانوا يقدمون أكلا أقل وأسوأ، بالإضافة إلى أن المتابعة الطبية هنا مُدرجة في رسم البانسيون، لأن صاحب البانسيون نفسه طبيب.

ولكن البانسيون لا يشبه تلك المصحات إذ إنه بُني على طراز تلك البيوت العربية الثرية التي تحتوي على قاعة مركزية مثمنة الزوايا على شكل الأتريوم، مع الشرفات العديدة، وقطع الزجاج الملونة على النوافذ والسقف المسطح نوعًا ما إلخ. والناس الذين يعيشون هنا في الغالب من مرضى الكلى وبالتالي يبدو وكأنهم بصحة جيدة، وبعضهم معافون تمامًا، يتعاملون بالود ويأكلون وراء table d'hote(*)، وفي المساء يجتمعون في الصالون ويلعبون ويتسلون، ويدردشون. على كل حال، ليس هناك ذلك "الحبس الانفرادي" الذي عشته في ليمان(**). بعضهم ممتعون [...]. ويوجد هنا الأوكران ولكن gente فقط، لا natione(***)، نوع أقل إثارة للاهتمام، لأنه النوع العادي الشائع. وفي ذلك البانسيون الذي أقمت

(*) بالفرنسية وتعني: مائدة مشتركة في البانسيونات والمنتجعات والمطاعم.

(**) ليمان: هور أو خليج يتكون عن طريق انفصال مصب النهر عن البحر. قاع الليمان مغطى بطبقة من الطين الأسود المعروف بخصائصه العلاجية. كانت ليسيا أوكراينكا تتلقى العلاج في منتجع يقع على شاطئ الليمان قرب مدينة أوديسا في جنوب أوكرانيا.

(***) جملة لاتنية تعني: من حيث الأصل، لا من حيث القومية. فالجنت gente هم بعض من تعود أصولهم البعيدة إلى أوكرانيا ولكنهم لم يعودوا يعيشون على أراضيها وربما يحملون جنسيات أخرى، أما الـ natione فهم المواطنون الأوكرانيون.

فيه حوالي أسبوعين (Antonio)، يسكن في الغالب الإنجليز ومن يقلدهم، وتسود هناك أجواء مهيبة peu sociable et prude(*)، كما هو الحال، كما يقولون، في كل البانسيونات التي تحتذي الطريقة الإنجليزية في التعامل.

عندما كان كليونيا هنا، تفرجت معه على بعض الأشياء في القاهرة، والآن لا أخرج لأنه أصعب بالنسبة لي أن أتحرك وحدي. رأينا الأهرامات العظيمة وأبا الهول العظيم. إنه شيء فريد من نوعه حقًا في العالم كله! لا لوحات فنية، ولا صور إلخ مهما كانت يمكنها أن تعطي فكرة حقيقية عن روح هذه المخلوقات الحجرية. خصوصًا أبو الهول له روح عظيمة عمرها آلاف السنين، لديه عيون مشرقة، وكأنه يرى الخلود. وما أجمل المنظر أمام عيني أبي الهول!.. لم تخيب مصر آمالي، بل فتنتني أكثر، والآن فقط أدركت موهبتها العبقرية، بعد أن زرت متحف القاهرة.

ولكن سأكتب أكثر في وقت لاحق. الآن تأخر الوقت.

لماذا لا تكتبين لي يا أماي؟ ألم تصلك رسائلي بعد؟ أنا مشتاقة إلى أخباركم، يا أحبائي.

أقبلك أنت ودورا بقوة(**).

ليسيتك

(*) جملة بالفرنسية تعني: قليل الأنس ومفرط في التأدب.

(**) دورا: هي إيسيدورا كوساتش-بوريسوفا، الأخت الصغرى لليسيا أوكراينكا. و"دورا" اسم تدليل.

رسالة إلى بوريس هرينتشينكو(*)

15 فبراير 1910م حلوان

1910\II\2

بوريس دميتروفيتش المحترم!

قبل مغادرة القوقاز كتبت لكم، ولكني نسيت الرسالة في البيت ولم أكن قد كتبت عليها العنوان، حتى إنها، على ما يبدو، بقيت هناك إذ ليس هناك ما يدلّ على أنها وصلتكم... وفي الوقت نفسه، لم أستطع لما وصلت هنا أن أكتب لكم فور وصولي، تارة بسبب متاعب الاستقرار في مكان جديد، وتارة أخرى بسبب "العطلة"

(*) بوريس هرينتشينكو (1863-1910م): كاتب ومعلم ومعجمي وناقد أدبي وإثنوغرافي ومؤرخ وكاتب صحفي وناشط اجتماعي وثقافي أوكراني. رئيس تحرير لعدد من الدوريات الأوكرانية. صاحب الأبحاث الإثنوغرافية واللغوية والأدبية والتربوية، والمقالات التاريخية، وصاحب الكتب المدرسية الأولى في اللغة الأوكرانية والأدب الأوكراني. وضع "قاموس اللغة الأوكرانية" الذي صدر بين عامي 1907 و1909 في كييف في 4 مجلدات، وكان له تأثير كبير على ترسيخ اللغة الأوكرانية الأدبية وقواعدها الإملائية.

التي عشـــتها حين كان كليم(*) هنا معي (غادرنا معًا، ولكن الآن أنا منذ فترة طويلة هنا وحدي) وتارة لا أعرف حتى لأي ســـبب. في الحقيقة كان المرض أحيانًا والعمل أحيانًا أخرى يَحُولان قليلاً دون المراســـلة. أمراضي هي هي كما كانت من قبل، مع أنها تبدو في مصر أقل بكثير، حتى إن لـــديّ "أمل جريء" في أن أتركها هنا، فإن لم يكن الآن ففي الســـنة القادمـــة، وربما الآن. المهم أن درجة حرارتي هنا طبيعية (ولم يكن الأمر كذلك خلال الشتاءين الماضيين ولو ليوم واحد) والطاقة أكثر بكثير في الجسم كله. ولتسريع الشفاء لا بد أن أتعرض لحقن التوبركولين، ســـنرى إلى ماذا سيؤدي هذا. ولكن هكذا يكون نفد صبري، لأنه ماذا أريد أكثر من ذلك يا تُرى؟ على كل حال، يقولون إن طرد مرض السل من الرئتين يكون أسهل بكثير من طرد مرض الســـل من الكلى (هكذا "يواسيني" أطبائي)، ولذلك لا بد من أن أتداوى "بشكل جدي".

ولكن حتى الآن لا أفعل أي شـــيء "جـــدي"، إلا أن أتدفأ تحت الشمس وآكل خمس مرات في اليوم (**) quantum satis. الحياة هنا لا بـــأس بها، إني نزلت عند أنـــاس محترمين وفي مجتمع لطيف. وفيلا كونتنتال Villa Continental هي في الحقيقة مصحة، ولكنها لا تبـــدو كذلك لأنها أقميت في بيـــت أحد العرب الأثرياء الذي بُني

(*) اسم مختصر من "كليمينت" وهو زوج ليسيا أوكراينكا.
(**) جملة لاتينية تعني: كمية كافية، حتى الشبع.

للاستخدام الشـــخصي وفيه قاعة عامة في الوسط (بمثابة الأتريوم الروماني) وشـــرفات بزجاج ملون على الشبابيك إلخ. وبيننا كثير من الناس يتمتعون بصحة جيدة، بالإضافة إلى المرافقين إلخ. لذلك كثيـــرًا ما تكون عندنا أجواء مرحة للغايـــة. وأخيرًا، فالمناخ هنا، وخاصة الأجواء المحلية، يجعل الناس ميّالين إلى الفرح: الســـماء الصافيـــة دائمًـــا، الثقة الكاملة من عدم نـــزول المطر (خلال فترة الشهرين ونصف اللذين قضيتهما هنا، نزل المطر حوالي 5 مرات) لطافـــة الأجواء المحلية، وخفّة الهـــواء التي لم ألاحظ مثلها في أي مكان في أوروبا، كل هذا ينعش روح الإنسان بطريقة أو بأخرى.

فقط افتقد أبناء وطني. يوجد هنا البعض من الأوكرانيين ورغم أنهم من الـ gente ruthenus(*) إلا أن وجودهم يريحني بعض الشيء لأننـــي كنت أتمنى أن يكونوا منا من حيـــث natione أيضًا. كانت هنا فيكتوريا تشيكالينكو(**)، ولكنها غادرت لأنها استردت صحتها لدرجة أنه لم تبقَ عندها أي جراثيم (وكان عندها في وقت ســـابق ســـل نشـــيط في الرئتين والحنجرة)، وبقيت فقط الهستيريا القديمة (الفطرية على ما يبدو) التي يمنع الكســـل الذي تتسم به الحياة في المصحـــة مواجهتها أكثر من أن يســـاعد، وهكذا ذهبت البنت إلى

(*) جملة لاتينية تعني: من أصل أوكراني.

(**) فيكتوريا تشيكالينكو: بنت يفهين تشيكالينكو (1861-1929م) في الأصل مهندس زراعي، لكنه بالإضافة إلى ذلك ناشـــط اجتماعي بارز يمارس أنشطة خيرية وناشر أوكراني.

إيطاليـــا على أمـــل أن تكمل هناك تعليمها الجامعـــي. والآن بقيتُ بـــدون أبناء وطني مـــرة أخرى، إلا إذا جـــاء لزيارتي الأوكراني بيلينسكي وهو من هاليتشينا(*) ويعمل صيدليًا عند الخديوي. كم هي ظريفة المناصب التي يشغلها مواطنونا! من المؤسف أنكم لم تذهبوا معي إلى مصر. لكنّا ربما اســـتغنينا في تلك الحالة عن المصحّات ولاستأجرنا بيتًا صغيرًا نعيش فيه نحن معشر الكتاب الأوكرانيين. ألا ترون معي أن الفرصة لا زالت متاحة؟ ســـمعت من الناس هنا الذين جاؤوا من كابري(**) ومن كورفو(***)، ومن شاطئ الريفييرا أن كل تلـــك الأماكن لا قيمة لها مقارنة بمصر (وخاصة حلواننا). لا أعرف شـــيئًا عن كابري وكورفو، أما الريفييرا فيجب أن أقول إنها لا تُقارن بمصر بأمطارها ومســـاءاتها الباردة في الشتاء. أما هنا فقد شـــعرنا بالبرد لفترة قصيرة، لمدة أســـبوعين فقط، من عيد الميلاد إلى عيد الغطـــاس، ومع ذلك لم تكن الحرارة أقل من +10 خلال النهار و+8 في الليل (والآن +18 في الظل). وفي البيوت لا توجـــد عندنا دفايات نهائيًا (حتى مثـــل تلك التي كانت موجودة في إيطاليـــا)، ولكن حتى مرضى الكلى وهم مـــن الناس المحبين جدا للحـــرارة لا يتأثرون بذلك. مع ذلك، في بعض المصحّات الدفايات

(*) هاليتشينا (أو غاليسيا): منطقة تاريخية في غرب أوكرانيا وجنوب شرق بولندا.
(**) كابري: جزيرة إيطالية تقع في البحر التيراني من خليج نابولي.
(***) كورفو: جزيرة يونانية تقع في البحر الأيوني في شمال غرب اليونان.

موجودة. الشيء السيئ الوحيد هو ربما أن الحياة هنا مكلفة نوعًا ما - 85 روبلا في الشهر، وحتى 130، و150، وأكثر يدفعها حتى الناس متوسطو الدخل إذا كانوا لا يستطيعون تنظيم إقامتهم هنا اعتمادا على أنفسهم. وبالنسبة إليّ فهذا يُعوَّض قليلا لأني أجد هنا مصدرا للرزق وهو الشيء الذي، على سبيل المثال، لم أستطع أن أجده في يالطا، لذلك فمن الناحية المادية من الأسهل بالنسبة إليّ أن أعيش هنا منه في القرم. ومن الناحية المعنوية من المؤسف غالبًا أن الرسائل من القوقاز تستغرق وقتًا طويلاً جدًا حتى تصل - أسبوعين كاملين! ومن أوكرانيا تصل بعد أسبوع واحد أحيانًا. من إيطاليا، ربما، كانت ستصل بسرعة، ولكنه ذنبي أنا أني لا أعرف كيف تصل بالضبط، من أوسبيداليتو مثلاً، لأني لم أكتب بعد لا لكم ولا لعائلة كوزلوفسكي. أنا حتى لا أعرف كما ينبغي كيف صحتكم. وأنا لا اعتمد على الأخبار من كييف لأنها تصل بطريقة ملتوية للغاية لدرجة أنها وقت وصولها تصبح قديمة وتصبح في ذمة التاريخ لا أكثر. وسيسرّني أن أعرف شيئًا جديدًا، رغم أنني أعلم من نفسي أن الكتابة عن الصحة مملة جدًا.

أتسلى هنا بالأدب قليلاً جدًا لأني لازلت لا أجرؤ على العمل كثيرًا (لا يسمح لي الطبيب بذلك)، كما أن كسب الرزق يستغرق الكثير من الوقت. ومع ذلك، فأني أترجم الأغاني الوجدانية لمصر القديمة (من الترجمة الألمانية وليس عن الهيروغليفية) لقد أثارت

اهتمامي لمشابهتها... الأغاني الأوكرانية!

ومن كان سيتوقع هذا! أنوي أن أكتب انطباعاتي المصرية، ولكن لم أكتب ولا كلمة واحدة بعد. جميل هو هذا المكان، وقد تعودت أن أحبه كمكان قريب من نفسي.

دمتم بالصحة. أتوجه بخالص التحية لكما.

ل. كفيتكا

رسالة إلى ميخايلو كريفينيوك(*)

15-16 فبراير 1910م حلوان

15(3)/II 1910, Egypte,

Hélouân, Villa Continental

عزيزي ميخايلو!

أمس كان عندي السيد يافورنيتسكي(**) الذي وجدني بصعوبة لأنه بحث عني في بانسيون السيدة بيلينسكا، قال لي إنكم أنتم من أعطيتموه هذا العنوان، ولكنه على ما يبدو أخطأ، لأنني أرسلت كل عناويني إلى البيت ولا بد أنكم تعرفونها. ولكن ليست مشكلة، لقد وجدني على كل حال وهذا يسرّني كثيرًا لأننا عموما نادرًا ما نرى هنا واحدا أوكرانيّا، وعلاوة على ذلك، فإنه بدا لي رجلا لطيفا

(*) ميخايلو كريفينيوك (1871-1944م): عالم لغة وناشط اجتماعي أوكراني، زوج أولها - أخت ليسيا أوكراينكا.

(**) دميترو يافورنيتسكي (1855-1940م): مؤرخ وعالم آثار.

وظريفا. الآن ذهـــب إلى الصعيد ليتفقد آثارها، وفي طريق العودة سيقيم هنا عندنا في الفيلا لمدة أسبوع تقريبا بغرض الاستراحة. إنه عجوز شجاع دخل الأهرامات وتسلقها وزار أماكن كثيرة أخرى! وهو في عمر الســـتين ومصاب بالروماتيـــزم! يا للعجب! لا بد أن أذهب معه مرة أخرى إلى المتحف المصري لأرى "الســـيدة ذات الوجه الذهبي" (توجد هناك مثل هذه الحســـناء). أما الآن فســـأبقى هنـــا ولن أذهب إلى أي مكان. أتلقـــى حقن التوبركولين مرتين في الأســـبوع، وأشعر نفسي أحسن: الأعراض الجانبية بسيطة، درجة حرارتـــي لا تزيد عن 37,2 درجـــة (وكان الأمر صعبا في تيلافي خلال فصل الشتاء بأكمله بدون أي توبركولين). خلال الأيام الأولى لم تكن حالتي الصحية جيدة، والآن لا بأس بها، حتى توقفت الآلام في ظهري ورجليّ تقريبا وقبلهـــا كانت تزعجني كثيرا في النهار والليل.

وكيف حالكم بعد الاســـتقرار في كاترينوسلاف(*)؟ تأثرتم بتلك الإقامـــة "المؤقتة"! ونحن مثلكم، دائما في حالة الاســـتعداد للتنقل. كتـــب كلوينا(**) أنه يحـــاول أن ينتقل من تيلافـــي إلى مكان أكثر جفافـــا، ولكن ليس هناك شـــيء واضح حتـــى الآن. لا أعرف ما

(*) اسم قديم لمدينة دنيبرو الأوكرانية وهي حاليا رابع أكبر المدن الأوكرانية من حيث عدد السكان بعد كييف وخاركيف وأوديسا.

(**) كلونيا: هو كليمينت كفيتكا، زوج ليسيا أوكراينكا.

إذا كان رجاكـــم أن تردوا له تلك المـــواد الإثنوغرافية التي كنا قد أرســـلناها لكم قبل سفرنا الى مصر. إذا كان لم يفعل ذلك، أرجوكم أن ترســـلوها له لكي يحافظ عليها بنفسه، لأنه دائما يقلق كثيرا ما لم تكن تلـــك الموادّ معه. وربما إذا حصـــل على فرصة للانتقال، فســـيكون عنده في هذه الحالة حوالي شـــهرين متاحين "للانتقال"، وربما ســـوف يُقبل على تصنيف هذه المـــواد. وعنوانه هو التالي: تيلافي، مقاطعة تفليس، شارع ناغورنايا 4، رقم 4، عناية كليمينتي فاسيليفيتش كفيتكا.

رأيت أخيرًا السيد بيلينسكي. يا له من أمر مؤسف! اتضح أنه لم يذهب إلى مكة، وأني لم أره حتى الآن لسوء تفاهم حدث ليس أكثر. إني سعيدة جدًا بالتعرف إليه، أما إذا كان هو سعيدا بالتعرف إلي أم لا، فهذا ما لا يعرفه أحد سواه.

هل تعرفون لماذا لا تكتب ليلا(*) وماما إلى كلونيا؟ لقد كتب لهما بمناسبة الأعياد. ربما فُقدت الرسائل (أو البطاقات)؟ كنت أودّ أن أكتب أكثر ولكن حان الوقت لأدرّس لأحدهم اللغة الفرنسية. دمتم بالصحة، أقبلكم.

ليستك

(*) هو اسم الدلع لشقيقة ليسيا أوكراينكا أولها.

رسالة إلى أولها كوساتش (الوالدة)

(مقتطف)

10-11 أبريل 1910 حلوان

11/IV (28/III) 1910, Egypte

Hélouân, Villa Continental

أمي الغالية!

[...]

وهناك موضوع آخر غير سـارّ أيضًا يتصل بصحتي. إنها لا تتحسن فعليًا. ربما بلا جدوى جرؤت على حقن التوبركولين (اسم الدواء "endotin(*)")، لأنني ومنـذ أن بدأت أتلقى تلك الحقن منذ شهرين، كانت درجة حرارتي طبيعية لمدة 19 يوما فقط، أما باقي الأيـام فقد بدأت تظهر أعراض، وبالإضافة إلى ذلك بدأت تؤلمني

(*) أثبت العلماء فيما بعد أن حقن التوبركولين لفترة طويلة مضرّ للصحة (يستخدم فقط لتشخيص مرض السل).

رِجلـــي مرة أخرى (!sic(*)) - ربمـــا بقيت هناك جرثومة لم يقضِ عليها بيرغمان(**) - وكانت تزعجني بشكل مستمر لمدة شهر كامل لدرجة أن الأمر كان يصل أحيانا إلى البكاء... !Ja, das war etwas. والآن إمـــا أن رِجلي قد تعوّدَتْ علـــى التوبركولين، وإما أن رياح الخماسين وحمامات الكبريت تغلبت عليها، فقد "ثابَتْ إلى رشدها" أخيرًا ولم تعد تزعجني أثناء النوم أو المشـــي، على الرغم من أنها تذكرّني بوجودها أحيانًا.

أظن أن الكبريت ورياح الخماســين هي التي نفعت لأننا توقفنا عن حقن التوبركولين لفترة معيّنة لكي نأخذ استراحة كبيرة ونعتني برجلي. جرّبتُ "حمامات الشمس" ولكن حدث شيء غريب بسببها: ارتفعـــت t° (درجة حرارتي) إلى 38 درجـــة، والنبض إلى 115، وبعدها يخشـــى طبيبي إلى الآن أن يكـــرر هذه التجربة. أليس هذا غضب إلهي رع الذي غضب مني لأني بالإضافة إلى قوته السماوية ألجأ إلى الأدوية الدنيوية الشريرة مثل endotin وما شابهه؟.. ولكن "le vin est tiré, il faut le boire(***)" فسأكمل "دورة العلاج" هذه، وإذا لم يظهر التحليل تحسنًا جديًا في الكلى، فتبًا لـ endotin من الآن وإلى الأبد. على الرغم من أن الطبيب يقول إن هذه "الدورات" يجب

(*) نعم! (اللاتينية).

(**) إرنست بيرغمان (1836-1907م): جراح ألماني مشهور، أستاذ جامعة برلين، أجرى في عام 1899 عملية جراحية لليسيا أوكراينكا.

(***) "النبيذ سُكِبَ، لا بد من شربه" (تعبير فرنسي).

أن تتكرر من حين لآخر لمدة سنتين، ولكن تكفيني دورة واحدة لأنها تكلف صحتي كثيرًا.

وبعد كل هذا هل لا بد أن أشرح لماذا لم أكتب "بيرون"(*)؟ إني كنت منشغلة عن الكتابة (كنت أستطيع ترجمة العقود فقط، ولم استطع حتى كتابة الرسائل)... في الأيام الأخيرة على الأقل انتعشت روحي وتحت تأثير الخماسين كنت استطيع أن أكتب في الموضوعات المصرية فقط: "الخماسين"، "تنفس الصحراء"، "عفراء" (هذه هي قصائدي). آه، لو رأيتِ الخماسين ذلك الشيطان الأحمر وكيف تحوّل الدنيا إلى كابوس أصفر!

إنها روح شريرة حقًا - تيفون(**)..! وبعدها هبت "الخماسين الهادئة" بدون الرمل والحجارة المتطايرة في الهواء، ولكن مع اللون الأصفر و+30 درجة مئوية في الظل؛ وبعد ذلك كان "تنفس الصحراء" مع درجة الحرارة نفسها ولكن من دون اللون الأصفر، وبعد ذلك كانت "عفراء" - سكون تامّ مع السماء البيضاء من القيظ (t° هي نفسها) وأخيرًا، الريح الشمالية والمطر. والآن t° عندنا هنا كدرجة الحرارة على جبل أوليمبوس عند هوميروس ونستمتع

(*) هو إله الرعد والبرق في الميثولوجيا السلافية، وهو هنا يبدو مشروع كتاب كانت تشرع أوكراينكا في كتابته.

(**) وحش ذو مائة رأس حسب الأساطير الإغريقية وهو أخطر وحوش الأساطير الإغريقية.

بذلك. وكانت قبلها "الليالي المصرية" لدرجة أننا كدنا نجنّ. صار نصف حلوان مهجورًا بعد فرار المسافرين الجماعي رعبًا. ولكنني مسرورة لأني أردت أن أعرف ما هي إفريقيا الحقيقية. الآن أعرف. حسنا، يكفي الآن. دمتِ بصحة جيدة يا أماي، وقبلي مَنْ منّا إلى جانبك. أقبلك بقوة.

ليستك

القسم الثالث

ليسيا أوكراينكا: سيرة حياة

1 - سيرة ليسيا أوكراينكا

ولدت لاريسا كوساتش-كفيتكا المعروفة باسم ليسيا أوكراينكا عام 1871م في مدينة زفياهيل (نوفوهراد-فولينسكي حاليًا) لأم كاتبة وناشرة، ولأب مثقف انصب اهتمامه على تطوير الثقافة الأوكرانية ودعم تطوير النشر الأوكراني. وقد فرضت الأم نظامًا صارمًا فيما يتصل باللغة الأوكرانية بحيث لم يكن مسموحًا الكلام بغيرها في المنزل، في زمن كانت اللغة الروسية فيه هي لغة التعليم الرسمية، وكان الأهالي مضطرين إلى توفير مدرسين خصوصيين لأبنائهم لكي يعلموهم الثقافة والأدب والتاريخ الأوكراني.

وقد أتقنت لاريسا أو ليسيا أوكراينكا العديد من اللغات الأجنبية بالإضافة إلى لغتها الأوكرانية الأم. على سبيل المثال أتقنت ليسيا اللغة الروسية، البولندية، البلغارية، اليونانية، اللاتينية، الفرنسية، الإيطالية، الألمانية والإنجليزية. ولم يكن غريبًا، والحال هكذا، أن تتفتح مواهب ليسيا في فترة مبكرة من عمرها. إذ كان للتربية والتثقيف اللذين تلقتهما أثره في أن تتعلم ليسيا القراءة في الرابعة من عمرها والعزف على البيانو في سن الخامسة وأن تكتب أولى قصائدها الشعرية وهي لا تزال في سن التاسعة. لكنها نُشرت عام 1884م، أي بعد أربعة أعوام من كتابتها، في مجلة تسمى "زوريا"(*) كانت تصدر في مدينة لفيف (**)Lviv بتوقيع ليسيا أوكراينكا الاسم الأدبي الذي اقترحته الأم على ابنتها.

(*) تعني الفجر بالعربية.
(**) لفيف Lviv مدينة قديمة تقع غرب أوكرانيا يعود أصلها إلى عام 1200م، وتعتبر مركزًا ثقافيا واقتصاديًا مهمًا، تشتهر بالأوركسترا الوطنية والمسرح الوطني للأوبرا والباليه.

وأظهرت ليسيا، كما سبقت الإشارة، موهبة خاصة في مجال العزف على البيانو، لكنها اُضطرت إلى قطع دراستها الموسيقية بصورة مفاجئة وهي في سن الحادية عشرة بسبب مرض مفاجئ في العظام سيلازمها حتى وفاتها وهي لا تزال في أوائل الأربعينات من عمرها. وقد شخّص الأطباء مرضها بسل العظام في صيف عام 1883م. فأجرت في أكتوبر من السنة نفسها عملية جراحية بهدف استئصال العظام المصابة من يدها اليسرى.

وعلى إثر هذا المرض حوَّلت ليسيا اهتمامها كليةً إلى قراءة الأدب وكتابة الشعر والترجمة بعد أن لم تعد قادرة على بذل الكثير من المجهود. وعندما بلغت ليسيا سن السابعة عشرة أسست عام 1888م بالاشتراك مع أخيها(*) حلقة أدبية أطلقا عليها اسم "بلِيدز" The Pleiades. حيث استهدفت الحلقة الترويج لتطور الأدب الأوكراني، وترجمة روائع الأدب الأجنبي إلى اللغة الأوكرانية.

من ناحية أخرى وجدت ليسيا تشجيعًا آخر من خالها ميخايلو دراهومانوف، الناشر والمؤرخ، على جمع الأغاني والمأثورات الشعبية الأوكرانية للتعرف على التاريخ الأوكراني، كما شجعها على مطالعة الإنجيل واستلهام آياته الروحية في أشعارها. ولم تكن ليسيا أقل تأثرًا بنخبة المثقفين الأوكرانيين في كافة ألوان الفنون

(*) شاركها أخوها وصديقها المقرب ميخايلو اهتماماتها الأدبية حتى وفاته في عام 1903م.

مثـــل ميكولا ليســـنكو *Mykola Lysenko* (1842-1912م) المؤلف الموســـيقي المجدد وميخايلو ستاريتســـكي *Mykhailo Starytskyj* (1840-1904م) الكاتب والمخرج المسرحي المعروف.

وفي سن التاسعة عشرة ألّفت ليسيا أوكراينكا، من أجل شقيقتيها، كتاب "التاريخ القديم للشعوب الشرقية"(*). وترجمت أعمال العديد من الكتاب والشعراء العالميين ومن بينهم نيكولاي جوجول، آدم ميتسكيفيتس، هاينريش هاينه، فيكتور هوجو، هوميروس... إلخ.

نشرت ليسيا أوكراينكا أولى مجموعاتها الشعرية "على أجنحة الأغاني" عام 1893م، ثم "الأفكار والأحلام" عام 1899م، و"أصداء" عام 1902م. وبالإضافة إلى هذه الدواوين الثلاثة كتبت الشاعرة أكثر من مئة قصيدة لم يُنشر الكثير منها إلا بعد وفاتها. خصوصًا وأن النشر باللغة الأوكرانية إبان الإمبراطورية الروسية كان ممنوعًا قانونًا، وكانت الكتب تُطبع في غرب أوكرانيا ويتم نقلها خفية إلى كييف.

وقد كتبت ليسيا، بالإضافة إلى الشعر الغنائي، القصائد الملحمية، المسرحية، النثر وبعض المقالات النقدية. وجاءت أشعارها المسرحية في شكل حوارات فلسفية بليغة. حيث كانت هذه الحوارات من أهم وأروع ما تركت للأدب الأوكرانـــي. وتحيل واحدة من حواريات

(*) نُشر الكتاب عام 1918م.

أوكراينكا الدرامية بعنوان "زوجة بويار" The Boyar's Wife إلى التاريخ الأوكراني بشكل مباشر، ومسرحية أخرى رمزية بعنوان "أنشودة الغابة" The Forest Song تستلهم أساطير نسجها الخيال الشعبي الأوكراني. وتُوظف مسرحياتها الأخرى جوانب من تاريخ العالم، وجوانب من الإنجيل. وتعد هذه الأعمال الأخيرة، على الرغم من تناولها الفلسفي للموضوعات، بمثابة دعوة للشعوب للثورة من أجل حريتهم وكرامتهم ضد الظلم الذي يقع على الإنسان في كل مكان.

في عام 1901م عانت ليسيا أوكراينكا فجيعة فقد حبيبها سيرجي ميرجينسكي. وقد كتبت قصيدتها الدرامية "الممسوسة" The Possessed بالكامل ذات ليلة إلى جواره وهو يحتضر. وبذلك طوّرت ليسيا نوعًا أدبيًا جديدًا هو القصيدة الدرامية مُستلهمةً في كتابتها موضوعات وصورًا من الأدب العالمي. تلتها القصائد الدرامية "على الأنقاض"، "الأسر البابلي"، "كاساندرا"، "في السراديب"... إلخ. بعدها بسنوات قلائل، وفي عام 1907م، تزوجت ليسيا من موسيقي يُسمى كليمنت كفيتكا. حيث كان كفيتكا الرجل الذي قام بكتابة ونشر الأغاني الشعبية الأوكرانية التي تعلمتها ليسيا في ضواحي "فولين"(*).

(*) منطقة تاريخية في شمال غرب أوكرانيا تضم حاليًا عدة محافظات، تشبه إلى حد ما الوجه القبلي في مصر.

أقبلت ليسيا أوكراينكا، في التسعينات من القرن التاسع عشر، على كتابة الدراما. وفي مسرحيتها الأولى "الوردة الزرقاء" عام 1896م، التي تتناول حياة المثقفين الأوكرانيين، تتوسّع الكاتبة في موضوعات الدراما الأوكرانية التي تصف، في الغالب، حياة الفلاحين آنذاك. وتعتبر مسرحيتا "أنشودة الغابة" عام 1911م، "المضيف الحجري" عام 1912م من أهم الأعمال الأدبية لليسيا أوكراينكا. ويجمع النقاد على أن مسرحية "أنشودة الغابة" رائعة ليسيا أوكراينكا وقمة إبداعها الأدبي. حيث تصوّر المسرحية الصراع بين المثل العليا ومتطلبات الحياة اليومية المعتادة. إن مافكا (*)Mavka، عروس الغابة والبطلة الرئيسية للمسرحية، ليست مجرد نسخ آلي لصورة شعرية من الفلكلور الأوكراني، لكنها، بالأحرى، رمز لكل ما هو جميل وخالد. أما مسرحيتها "المضيف الحجري"، فتعالج، من منظور جديد، صورة دون جوان، أحد الموضوعات الشائعة في الأدب العالمي.

وتحتلّ الأعمال النثرية مكانة خاصة في النتاج الأدبي لليسيا

(*) تظهر المافكا في التراث الشعبي الأوكراني في صورتين مختلفتين إحداهما شريرة والأخرى خيِّرة. أما الصورة الشريرة فتتجلى فيها المافكا في صورة فتاة جميلة مسترسلة الشعر تعيش في الغابة، لا تنفك ترقص وتغني عارية إمعانًا في إغواء الشباب والرجال حتى يذعنوا بلا وعي منهم ولا إرادة لنداء خفي يأمرهم بالتوغل داخل الغابة وهناك ينتظرهم مصير مجهول قد ينتهي بالموت بفعل الدغدغة التي تمارسها المافكا على ضحاياها. وأما الصورة الخيرة فتظهر فيها المافكا وهي تقدم المساعدات للناس، وترعى الماشية وتحميها من الوحوش البرية. ولا يخفى أن المافكا تشبه النداهة عندنا أو حتى عروس البحر.

أوكراينـــكا. حيث تتناول قصصها الأولى "هذا هو قدرها" 1888م، "عشية عيد الميلاد" 1889م، "أغاني الربيع" 1889م الحياة الريفية، وهي مرتبطة بالأغاني الشعبية من حيث المضمون واللغة. بينما تنتمي المؤلفات: "أربع حكايات للضوضاء الخضراء" 1889م، "الفراشة" 1889م، "ليليا" 1890م، "المحنة عبرة" 1890م، إلى الحكاية كنوع أدبي. وتتّسم القصتان الطويلتان "الأسف" 1893م و"المودّة" 1905م بالتوتر الدرامي الحادّ. وقبيل وفاتها بدأت ليسيا أوكراينكا كتابة قصة طويلة بعنوان "إقبال هانم" كانت تنوي الكاتبة أن تصوّر فيها طباع المرأة العربية، ولكنها ماتت قبل أن تنته منها.

ونظرًا للظروف الصحية الخاصة التي مرت بها ليسيا منذ فترة مبكـــرة من عمرها، فقـــد نصحها الأطباء باتبـــاع نظام في حياتها والعيش في أجواء جافة. واُضطرت أن تسافر إلى بلاد متعددة بحثًا عـــن المناخ الجاف فقضت وقتًا طويلاً تتنقل بين ألمانيا، النمســـا، إيطاليا ومصر والقوقاز. وأصبحت بفعل التنقل المستمر قريبة من طبائع الناس ومتوافقة مع الثقافات المتنوعة للشـــعوب. وكان لهذه التجارب ولا شك أثر ظهر في أعمالها الإبداعية على اختلافها.

وعلى الرغم من طول فترات مرض أوكراينكا حتى وفاتها في عام 1913م عن اثنين وأربعين عاما؛ إلا أنها تركت وراءها ميراثًا أدبيًا غنيًا ومتنوعًا. فأفكارها الفلسفية العميقة وخصوصية أشعارها وتجربتها الأدبية وضعتها في مصاف الكتاب العالميين. وقد ظلت

كتابتها المستمرة في كافة نواحي الثقافة تكشف لنا عن هذه الموهبة الأدبية متعددة الوجوه، وتكشف، من ناحية أخرى، عن المعاني المتعددة التي اغتنى بها عصرها.

توفيت ليسيا أوكراينكا عام 1913م في مدينة سورامي الجورجية، ودفنت في مقبرة (بايكوفي) في كييف. وقد حُوّلت بعض أعمالها إلى أفلام، من أشهرها فيلم "أنشودة الغابة" 1961م المأخوذ عن مسرحية بنفس الاسم لليسيا أوكراينكا، "مافكا" 1980م و"إغراء دون جوان" 1985م. وقد تُرجمت أعمالها إلى الإنجليزية، الفرنسية، الروسية، الألمانية، البولندية، الجورجية وغيرها من اللغات.

خُلد اسم ليسيا أوكراينكا ليس في وطنها فقط بل أيضا في دول العالم، حيث نُصب تمثال لها في كل من مدينة تورونتو الكندية ومدينة تيلافي الجورجية، كما توجد لوحة تذكارية لها في كل من برلين في ألمانيا ومكتبة الإسكندرية في مصر. وفي عام 2004م أُسست جائزة ليسيا أوكراينكا لأفضل الأعمال الأدبية والفنية للأطفال والشباب.

2 - قائمة بأعمال مختارة من مؤلفات ليسيا أوكراينكا

المجموعات الشعرية:

1893م - ديوان "على أجنحة الأغاني" (Na krylakh pisen ′) نُشر في مدينة لفيف Lviv/ ضم 69 قصيدة و3 قصائد طويلة ("شمشون"، "أسطورة القمر"، "عروس البحر") تنتمي إلى المرحلة المبكرة من إبداع الكاتبة (حتى عام 1892م)

НА КРИЛАХ ПІСЕНЬ

ТВОРИ

Лесі Українки.

Ціна 60 кр.

У ЛЬВОВІ 1893.

НАКЛАДОМ АВТОРКИ.

غلاف ديوان ليسيا أوكراينكا "على أجنحة الأغاني" - لفيف، 1893م
(غلاف الطبعة الأولى)

1899م- ديوان "الأفكار والأحلام" (Dumy i mriji) نُشر في مدينة لفيف Lviv/ ضم 50 قصيدة مكتوبة بين الأعوام 1893 و1899م والقصيدتين الطويلتين "الحكاية القديمة" و"روبرت بروس، ملك اسكتلندا".

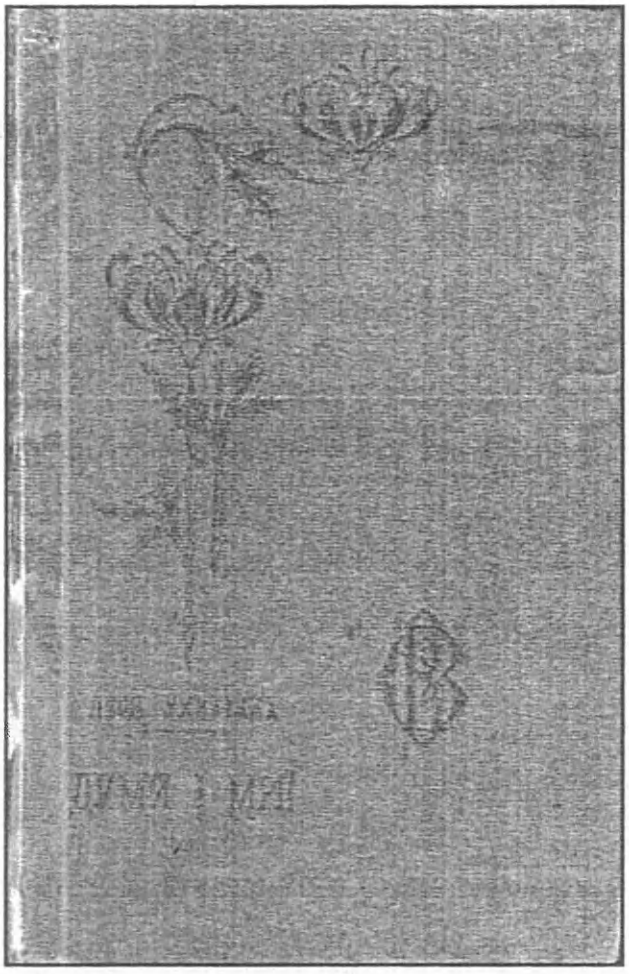

غلاف ديوان ليسيا أوكراينكا "الأفكار والأحلام" - لفيف، 1899م
(غلاف الطبعة الأولى)

1902م- ديوان "الأصداء" (Vidhuky)/ نُشر في مدينة تشيرنيفتسي Chernivtsi ضم 30 قصيدة مكتوبة بين العامين 1900 و1902م والقصيدة الدرامية "الممسوسة".

غلاف ديوان ليسيا أوكراينكا "الأصداء" - تشيرنيفتسي، 1902م
(غلاف الطبعة الأولى)

1910م - الربيع في مصر (مجموعة قصائد لم تدخل في ديوان، نُشرت لأول مرة في مجلة "البلد العزيز" Ridnyj kraj سنة 1910م)

القصائد الطويلة (مُرتبة حسب سنة كتابتها):

1885م - عروس البحر

1888م - شمشون

1891-1892م - أسطورة القمر

1893م - روبرت بروس، ملك اسكتلندا

1893م - الحكاية القديمة

1903م - كلمة واحدة

1901، 1911م - الأخت فيلا(*)

1912م - إيزولدا ذات اليد البيضاء

القصيدة الثلاثية(**):

ماذا سوف يعطينا القوة؟ (1903م)

معجزة أورفيوس (1913م)

عن العملاق (1913م)

(*) فيلا (Vila): فتاة ساحرة في أساطير سلاف الجنوب.

(**) قصيدة تتكون من ثلاثة أجزاء.

المسرحيات والقصائد الدرامية (مُرتبة حسب سنة كتابتها):

1896م - الوردة الزرقاء

1896م - الوداع

1898م - إيفيجينيا في توريس

1901م - الممسوسة

1903م - الأسر البابلي

1904م - على الأنقاض

1905م - حكاية الخريف

1905م - ثلاث دقائق

1905م - في السراديب

1906م - في بيت العمل، في بلد العبودية

1907م - كاساندرا

1909م - في الغابة الكثيفة

1906-1910م - روفين وبريستسيلا

1910م - زوجة بويار

1911م - أنشودة الغابة

1911م - المحامي مارتن

1912م - المضيف الحجري

1913م - معجزة أورفيوس

1913م - حفلة ماجنة

الأعمال النثرية (مُرتبة حسب سنة كتابتها):

1888م - هذا هو قدرها (مشهد من الحياة) (قصة قصيرة)

1889م - عشية عيد الميلاد (قصة قصيرة)

1889م - أغاني الربيع (قصة قصيرة)

1889م - الفراشة (حكاية)

1890م - ليليا (حكاية)

1890م - المحنة عبرة (قصة أطفال)

1893م - الأسف (قصة طويلة)

1897م - الأوتار الصاخبة (قصة قصيرة)

1905م - المودّة (قصة طويلة)

النقد الأدبي: (مقالات نقدية مختارة نُشرت في مجلات مختلفة):

1899م - اتجاهان في الأدب الإيطالي المعاصر

1900م - الكتاب الأوكرانيون في بوكوفينا(*)

1900م - آفاق جديدة وظلال قديمة ("المرأة الجديدة في الأدب الغربي")

(*) بوكوفينا (Bukovyna): منطقة تاريخية مقسمة اليوم بين رومانيا وأوكرانيا.

1900م - ملاحظات حول الأدب البولندي المعاصر

1901م - (ميخائيل كرامر) أحدث مسرحية لغيرهارد هاوبتمان

1906م - اليوتوبيا في الأدب

3 - حياتها بالصور

ليسيا أوكراينكا
عام 1886م

ليسيا أوكراينكا مع شقيقها ميخايلو
عام 1880 أو 1881م

ليسيا أوكراينكا منتصف الثمانينات من القرن التاسع عشر

لاريسا كوساتش (ليسيا أوكراينكا). مدينة أوديسا.
عام 1889م

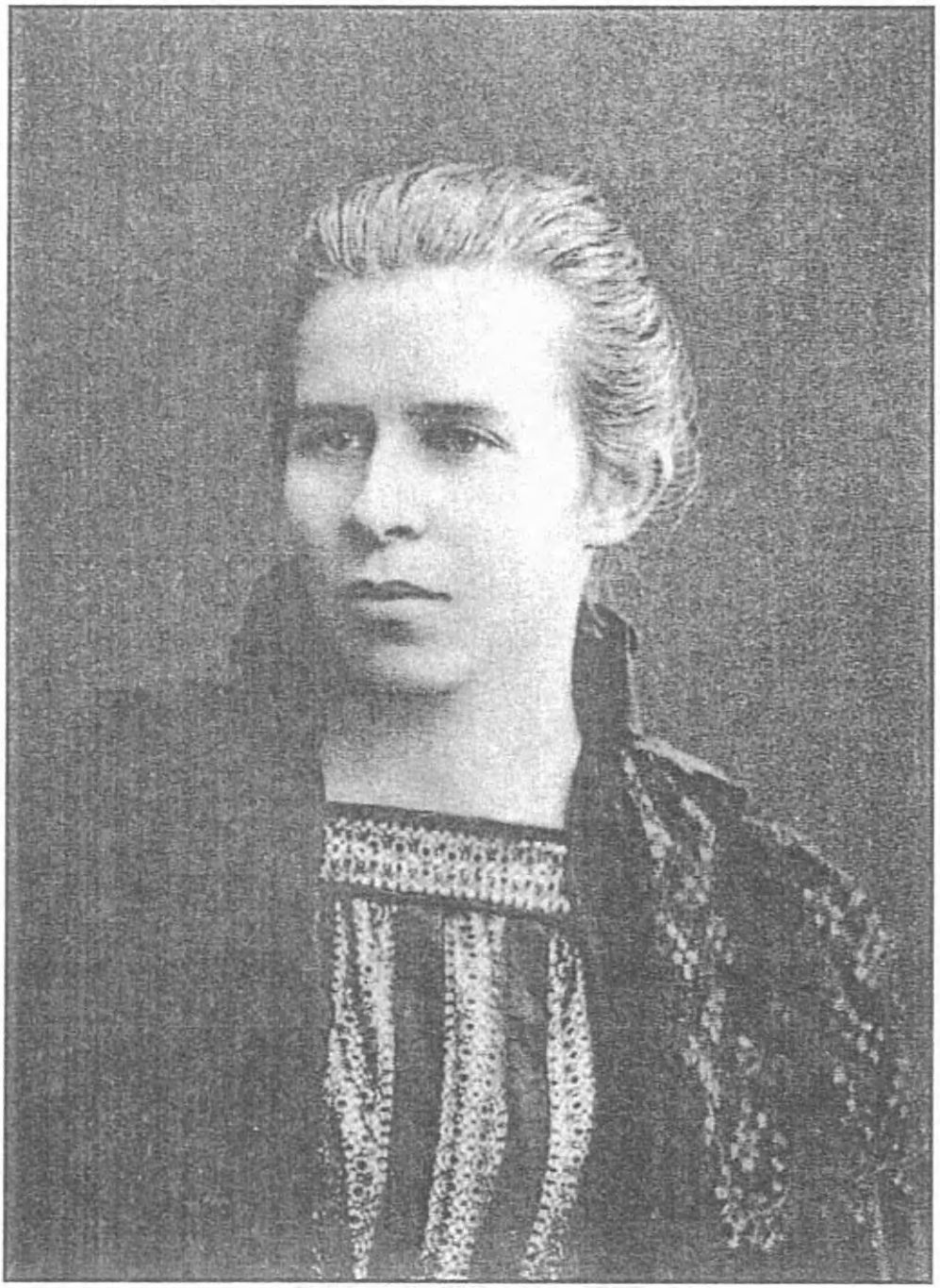

ليسيا أوكراينكا
عام 1896م

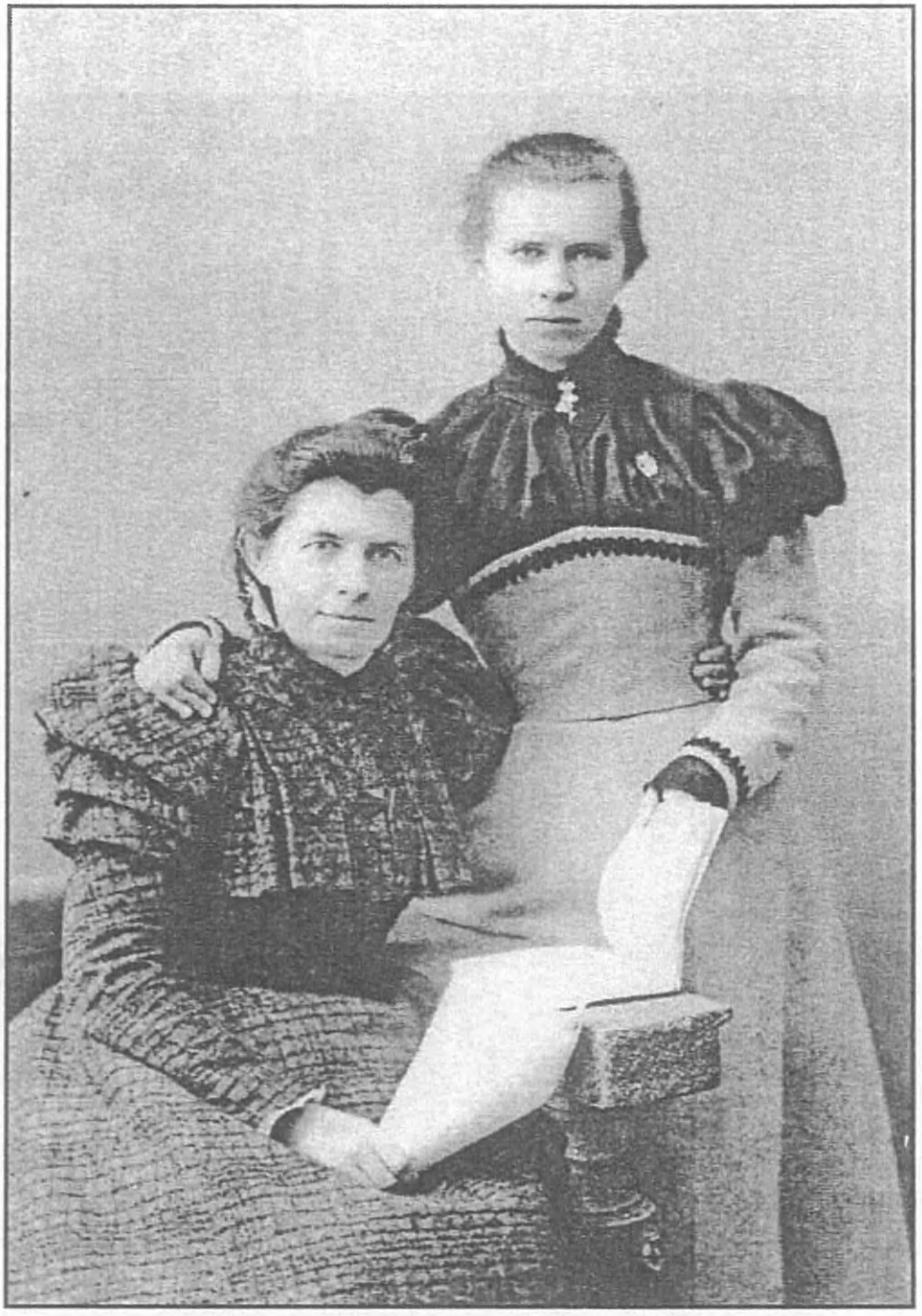

ليسيا أوكرينكا مع والدتها
يناير 1898م

ليسيا أوكراينكا (أسفل الصورة في الوسط)
مع أقاربها وحبيبها سيرجي ميرجينسكي، يوليو 1898م

ليسيا أوكراينكا عام 1901م
صورة مع توقيع الكاتبة

ليسيا أوكراينكا مع الكتاب الأوكران في مدينة بولتافا بمناسبة افتتاح تمثال للكاتب الأوكراني إيفان كوتلاريفسكي، عام 1903م

ليسيا أوكراينكا (في وسط الصف الأول) بين نزلاء Villa Continental
حلوان، ديسمبر 1909 - أبريل 1910م

ليسيا أوكراينكا في مصر عام 1913م

ليسيا أوكراينكا مع المؤرخ وعالم الآثار والفلكلور دميترو يافورنيتسكي
حلوان، فبراير - مارس 1910م

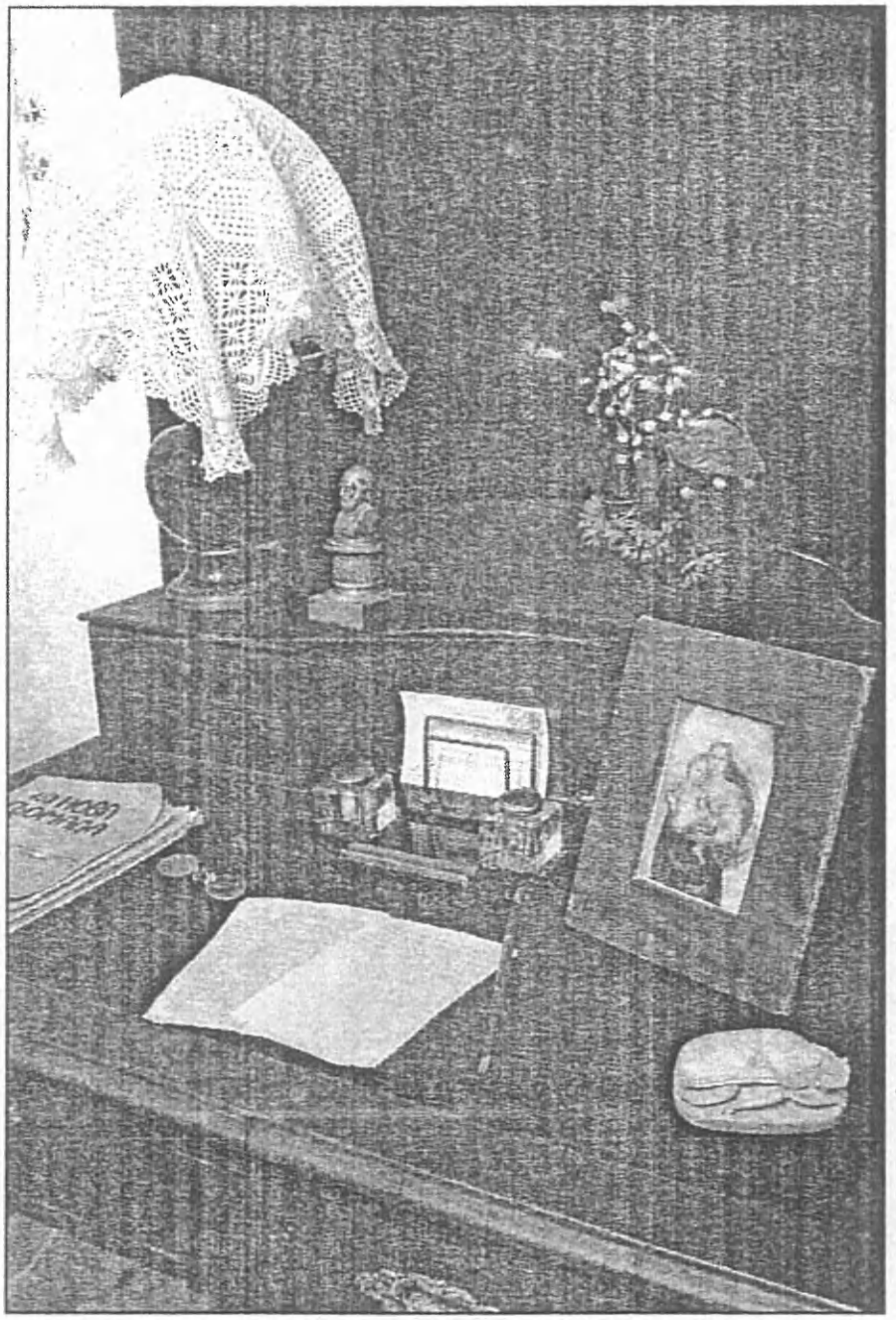

منظر غرفة ليسيا أوكراينكا في متحف الكاتبة في كييف

متحف ليسيا أوكراينكا في العاصمة الأوكرانية كييف
أقيم في المبنى الذي عاشت فيه عائلة الكاتبة حوالي عقد من الزمن
منذ صيف 1899م

لوحة تذكارية لليسيا أوكراينكا في مكتبة الإسكندرية بمصر

4 - من ألبوم رحلتها إلى مصر

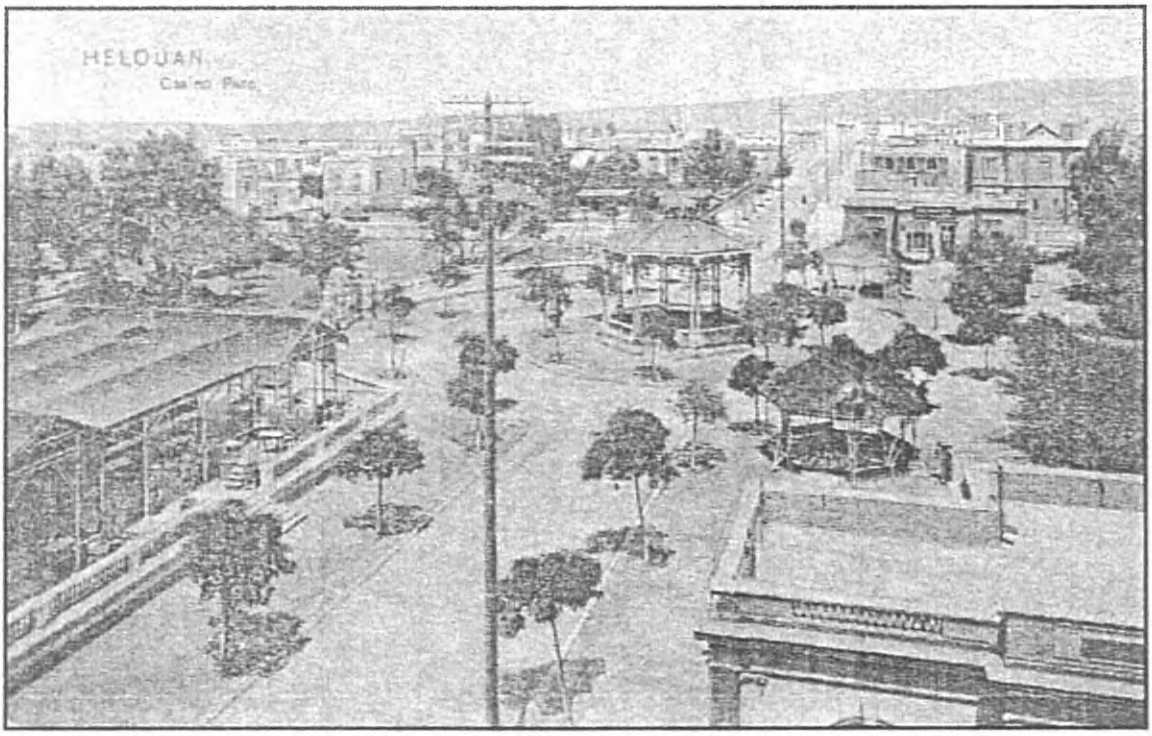

حلوان. بطاقة بريدية - بداية القرن العشرين

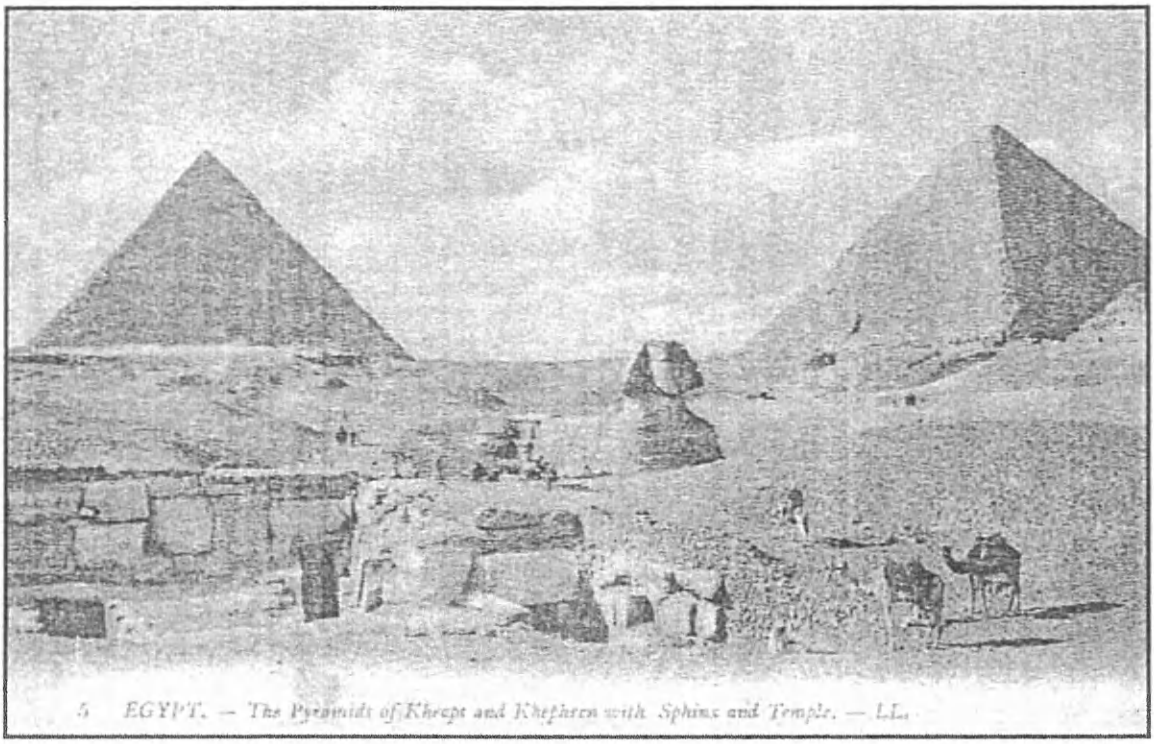

أهرامات الجيزة وأبو الهول. بطاقة بريدية - بداية القرن العشرين

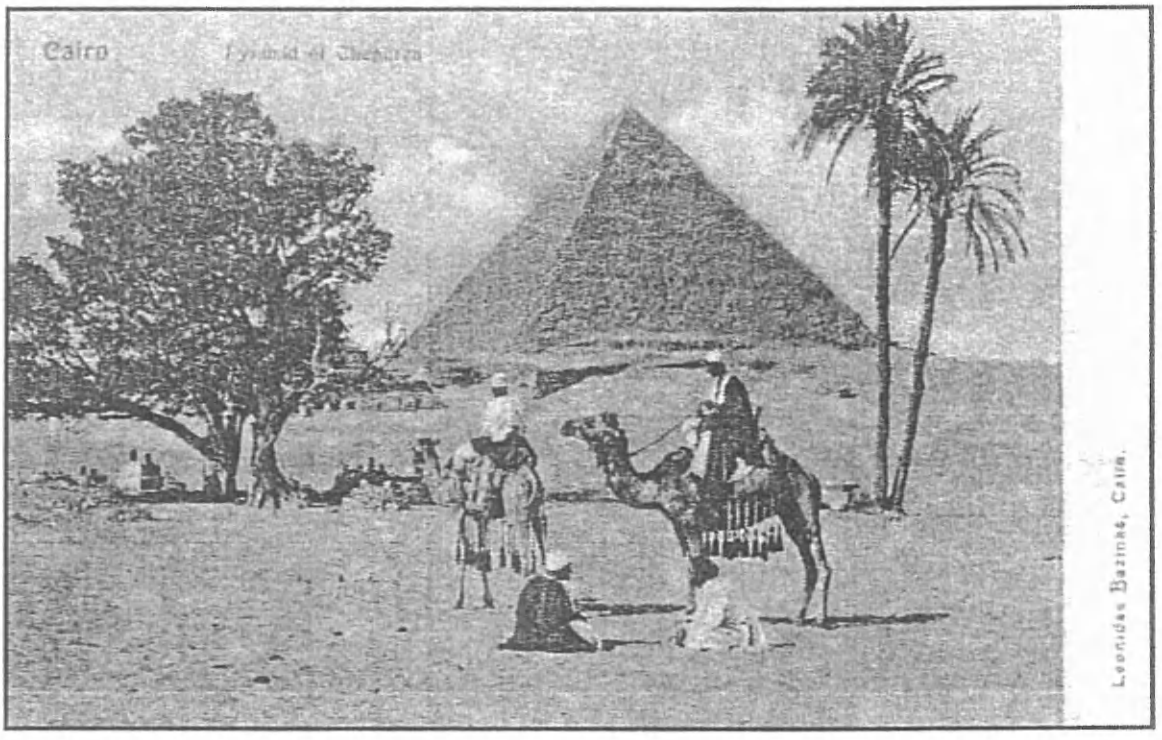

هرم خفرع. بطاقة بريدية - بداية القرن العشرين

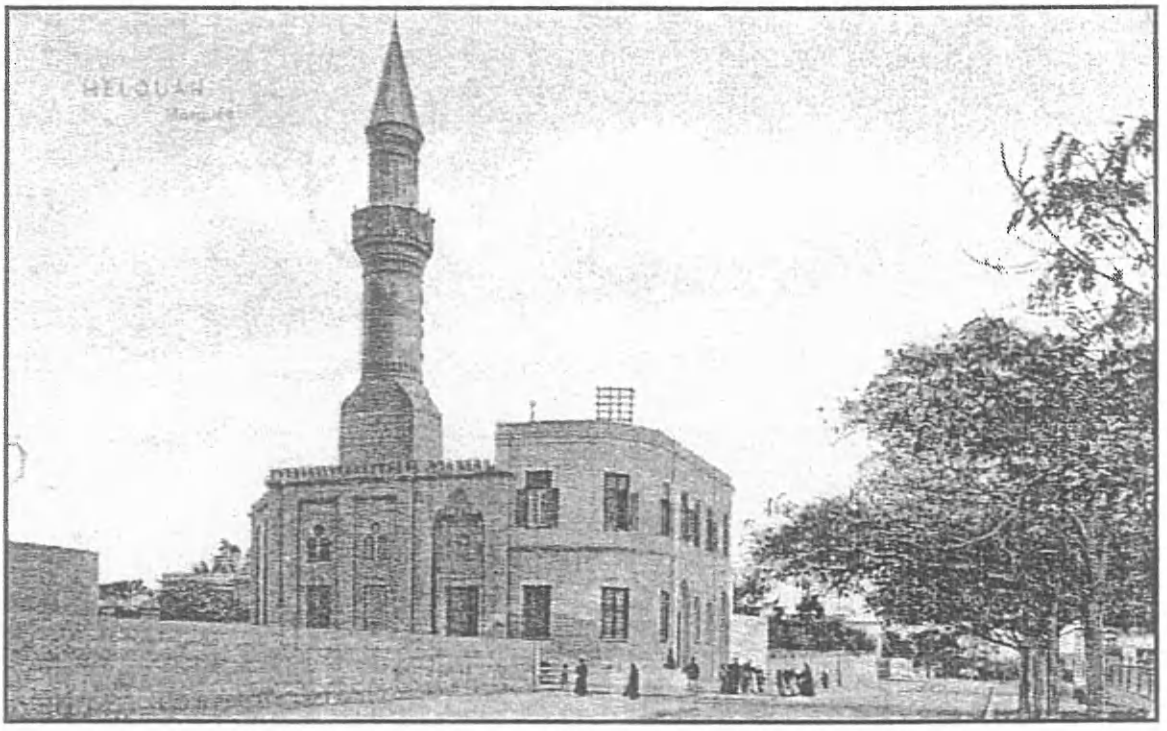

الجامع التوفيقي في حلوان. بطاقة بريدية - بداية القرن العشرين

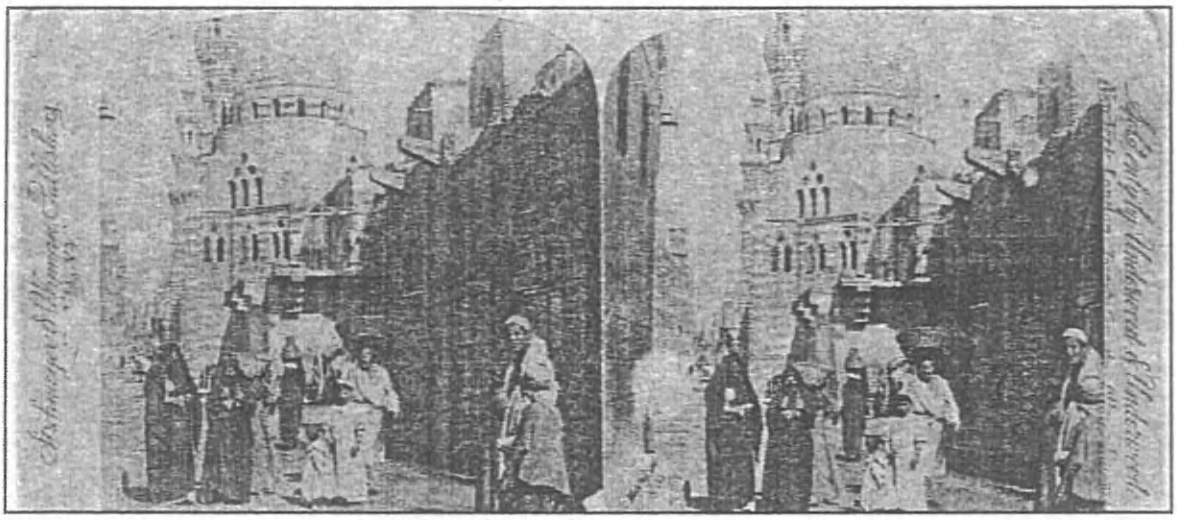

بطاقة بريدية لمصر المملوكية تعود إلى أوائل القرن العشرين

تذكرة الترامواي في القاهرة - بداية القرن العشرين

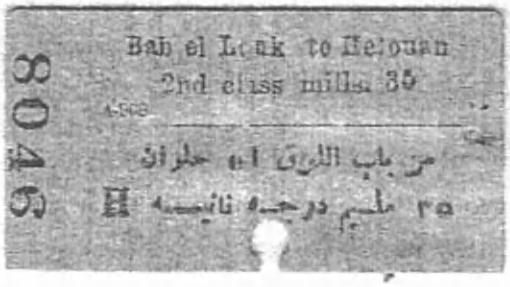

تذكرة القطار من القاهرة إلى حلوان - بداية القرن العشرين

تذكرة القطار من الإسكندرية إلى القاهرة -
بداية القرن العشرين

تذكرة دخول المتحف المصري -
بداية القرن العشرين

تذكرة قطار مصرية أوائل القرن
العشرين يظهر عليها بوضوح السعر

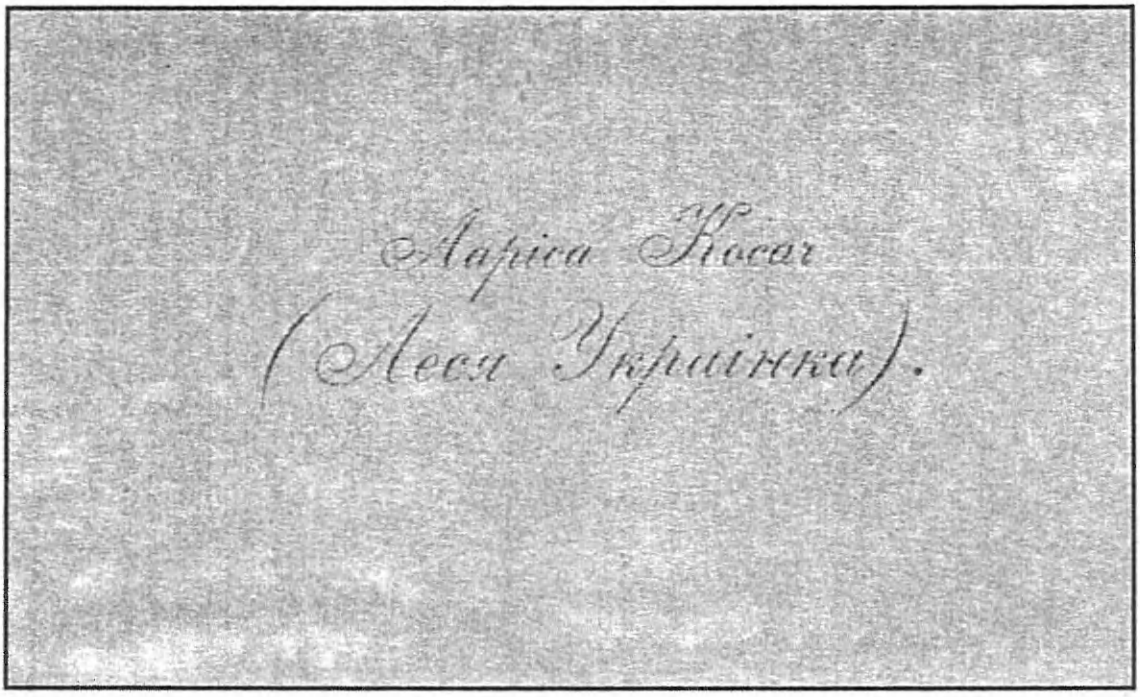

البطاقة الشخصية لليسيا أوكراينكا -
مكتوب عليها باللغة الأوكرانية: لاريسا كوساتش (ليسيا أوكراينكا)

بطاقة مصحة Villa Continental في حلوان حيث نزلت ليسيا أوكراينكا

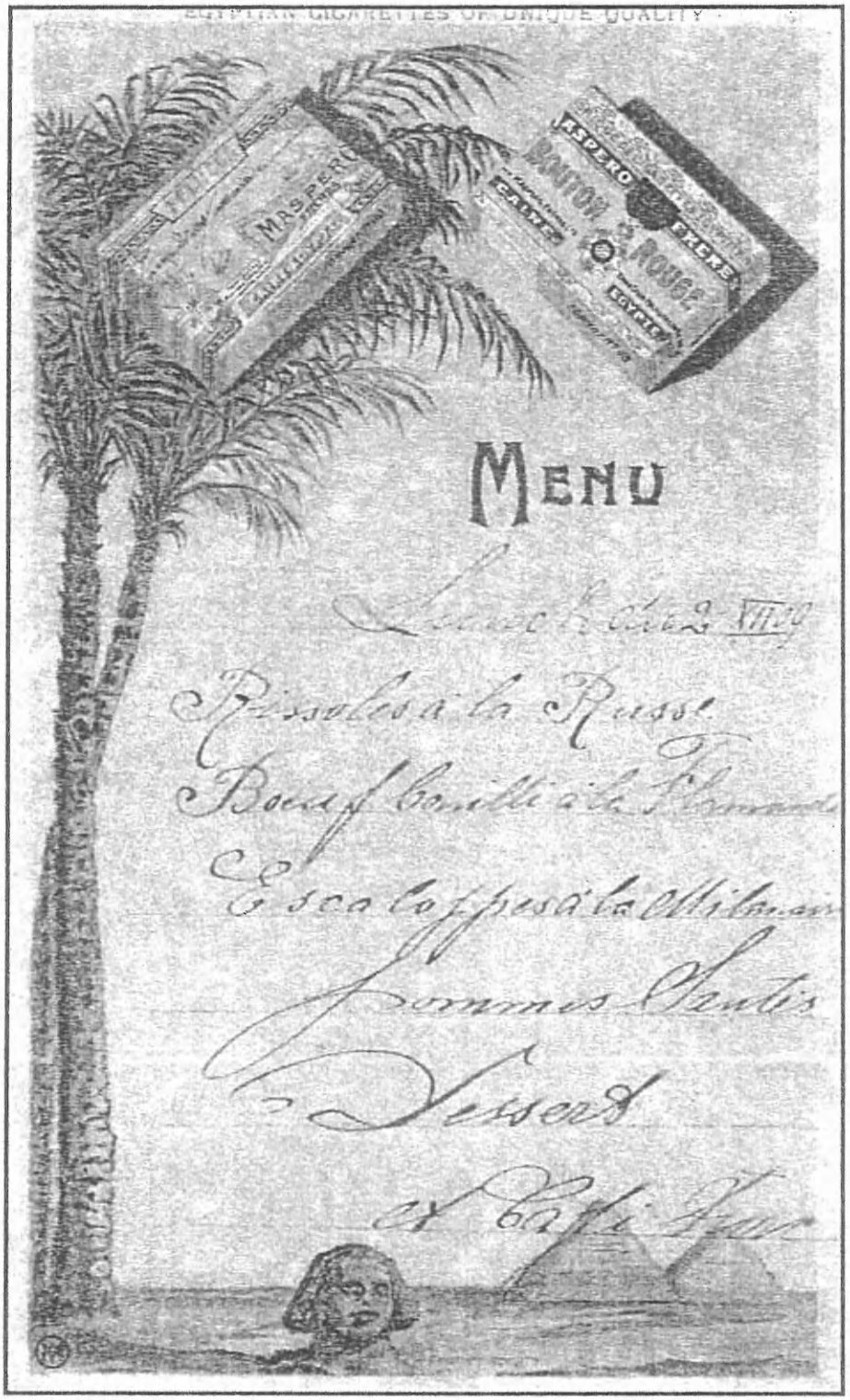

قائمة طعام مؤرخة بـ 2 ديسمبر عام 1909م، حلوان

ليسيا أوكراينكا (1871-1913م) واحدة من أهم شاعرات أوكرانيا في العصر الحديث، كتبت أولى قصائدها وهي لاتزال في التاسعة من عمرها، أجادت العديد من اللغات نطقًا وقراءة وكتابة مثلما أجادت العزف على البيانو. تمتعت أوكراينكا بموهبة أصيلة بحكم انتسابها لعائلة أدبية من ناحية وبحكم ميول فطرية من ناحية أخرى. واتفق أن أُبتليت هذه الموهبة منذ الصغر أيضًا بمرض في العظام ترك بصمته على حياتها، خصوصًا مع اضطرارها للسفر المستمر طلبًا للمناخ الجاف وما يقتضيه ذلك من فراق للأهل وللوطن. فكانت الموهبة والألم صِنوان متلازمان في حياتها. مثل هذه المكابدة المستمرة أكسبت شعرها عمق الألم وأنطقته بالمعاناة القارة في قلب تجربتنا الوجودية. وشاء القدر أن تكون مصر إحدى المحطات التي توقفت فيها أوكراينكا أكثر من مرة على مدار ثلاث سنوات بغرض الاستشفاء والاستجمام. فألهمت صحراء حلوان شاعرتنا بالكثير من القصائد التي ضمنتها ديوانها "الربيع في مصر". وسوف يجد القارئ في هذا الكتاب صورة لمصر بصحرائها وناسها ومعالمها منثورة في رسائلها أو منظومة في قصائدها. وليس الكتاب، مع ذلك، هو هذا وحسب. إنما هو كتاب يتصل بشاعرة وبعصر وبأدبٍ أوكراني نتطلع إلى معرفته وتذوقه، إذ هو حقًا جدير بضرورة مطلبٍ كهذا.

الغلاف: عمرو عبد العزيز

9 789774 904677

دار العين للنشر
Elain Publishing House